Mohamed Zakaria Elsayed
1098 Arden Ave
Staten Island NY 10312
718-9487805
zakariael@att.net

قصص وحكايات من زمن جميل فات



تأليف

محمد زكريا توفيق

مقدمة

بدأت هذا الكتاب ولا أدري كيف ينتهي. هو ليس قصة قصيرة ولا بحث تاريخي ولا دراسة إجتماعية ولا حتى سيرة ذاتية. إنما هو خليط من هذا وذاك.

هو مجرد ذكريات عن زمن جميل فات لن يعود. خشيت أن يطويها النسيان، وتذهب في خبر كان. هي تاريخ ما أهمله التاريخ. تعتمد فقط على ذاكرتي. أحداث رأيتها بنفسي، وحكايات سمعتها من وعن أقرب الناس لي. كلها قصص حقيقية، إن لم تخني الذاكرة.

الزمن مثل السهم المنطلق. يسير في إتجاه واحد إلى الأمام، لا يعود للوراء. الزمن فقط بالنسبة لجسيمات الذرة الصغيرة، يرجع إلى الوراء، أي إلى الماضي. لكن هذه قصة أخرى.

قد أكون أكثر حظا من الكثير من السادة القراء. لأنني عشت في طفولتي أيام الملك فاروق، وعاصرت في صباي وشبابي، الرئيس محمد نجيب والرئيس جمال عبد الناصر.

ثم هاجرت وعشت في الولايات المتحدة مدة حكم الرئيس السادات والرئيس مبارك والرئيس محمد مرسي والرئيس عدلي منصور والرئيس عبد الفتاح السيسي. كنت خلالها أتابع ما يجري في مصر من تحولات تاريخية واجتماعية عن كثب في الصحف المحلية

والأجنبية. هذه فترة الأبعينيات والخمسينيات. عندما كانت مصر جميلة، وكل ما فيها جميل. فترة من الزمن الجميل الذي لم تبق منه سوى ذكراه العطره. أرجو أن تستمتعوا بقراءتها كما استمتعت بالكتابة عنها. محمد زكريا توفيق

الفصل الأول

كان والدي يعمل موظفا صغيرا في بنك التسليف الزراعي. يتنقل بين قرى ونجوع محافظة الشرقية، ترافقه الأسرة الصغيرة المكونة مني ومن والدتي ووالدي.

كنا نسكن بيوت الفلاحين المبنية من الطين، والمعروشة بالحطب وأقراص روث الماشية المجفف، والمكونة من غرفة واحدة أو غرفتين وحوش صغير. حيث لا مياة جارية ولا كهرباء ولا مجاري.

دورة المياة كانت عبارة عن حفرة مسقوفة بجذوع النخل أو فروع الشجر. بها ثقب لقضاء الحاجة وإبريق فخار أسود للغسيل. لقد عشت قريبا من قاع المجتمع المصري ومراقبا له.

أول شئ أتذكره في بيت جدي، هو خيوط ضوء ذهبية تنبعث من مصباح كيروسين زجاجي، نمرة خمسة. وحشد من الكتاكيت الصغيرة تملأ غربالا موضوعا بجوار المصباح. وسبت غسيل كنت أوضع داخله خوفا من السقوط.

أسمع صوت نغمات غليظة لآلة العود تأتي من الصالة يقوم بعزفها عمي، الذي يصغر والدي بعشر سنوات. كم كان عمري في ذلك الوقت؟ ربما سنة أو سنتين. هل يمكن لذاكرتنا أن نعود إلى الماضي البعيد هذه السنين؟ نعم.

ثاني شئ أتذكره، هو أنني وجدت دبورا أحمر كبيرا يحتضر أمام باب البيت. قررت الامساك به بقشرة بصلة. لكن الحشرة كانت لاتزال حية، وقامت بلدغي في إصبعي. أخذني والدي إلى الحلاق لوضع بعض المراهم لتخفيف الألم. هل يمكن لقشرة البصل أن تحمينا من لدغ الزنابير؟ عقل أطفال.

كان لي مزاج خاص بالطرابيش. فكان جدي وعمي وأخوالى ووالدي يلبسون الطرابيش. وكنت دائم اللعب بطربوش جدي ونتف زره. كان والدى ينهرني للكف عن اللعب بطربوش جدي، لكن جدي كان يجد متعه في رؤيتي وأنا أقلب الطربوش وأخرج خوصته الداخلية.

قام والدي بشراء طربوش صغير على مقاسي حتي أبتعد عن طربوش جدي. كان اليوم عيد الفطر المبارك. ذهبت لكي أركب المراجيح يوم العيد. أعجبتني مرجيحة البطة. وهي عبارة عن صندوق خشبي على شكل مستطيل. مثبت من الوسط، يعلو وينخفض جانباه القصيران على التوالي.

ظللت أركب هذه المرجيحة اللعينة، إلى أن نفذت نقود العدية. فماذا أفعل؟ على رأي المطربة شريفة فاضل، الغاوي ينقط بطقيته. قمت أنا بالتنقيط بالطربوش.

طلبت من صاحب المرجيحة أن يُركّبني ويأخذ الطربوش. كان صاحب المرجيحة يعرف جدي. وزف له الأخبار والفضايح. وظل جدي رحمه الله يذكرني بهذه الواقعة إلى أن توفاه الله.

كان لدينا راديو فيليبس كبير يعمل ببطارية سائلة 12 فولت، التي تستخدم في السيارات. وكانت البطارية تشحن في ماكينة الطحين بالبلدة لكي تعمل لمدة لا تزيد عن بضع ساعات.

أذكر الصوت الحاد الذي يشبه صوت الصفير، الذي يأتي بين محطات الموجة القصيرة. عندما كان جدي يبحث عن محطة الإذاعة البريطانية لسماع الأخبار. وأذكر الإيريال الممتد بطول السطح، لالتقاط المواجات القصيرة.

كان جدي يقول: "لم أشاهد احتلال الإنجليز لمصر، اللهم مد في عمري حتي أري خروجهم". لقد حقق الله له هذه الأمنية. خرج الإنجليز عام 1954م، وتوفي جدي عام 1964م.

في ليالي الصيف، كنت تجد الفلاحين رجالا ونساء، تتجمع أمام شباك منزلنا لسماع صوت أم كلثوم في حفلتها الشهرية يوم الخميس الأول من كل شهر، وهي تشدو بإغنية "سلو كؤس الطلا"، أو وهي تغني: "ريم على القاع، بين البان والعلم ، أحل سفك دمي، في الأشهر الحرم".

هؤلاء الفلاحين لا يعرفون معني كلمة "ريم" أو "البان" أو "العلم". لكنهم يعلمون أن هناك فنا جادا تقوله أم كلثوم، يستحق السماع والانتباه.
جاءت سيدة ريفية كبيرة السن تزور جدتي، وعندما استمعت لأغاني محمد عبد الوهاب في الراديو، قالت: "الراديو بتاعكم ده

أحسن بكتير من راديو زوج ابنتي". عندما سألتها جدتي لماذا؟ قالت لأنه بيقول أغاني أحسن.

كانت فراشات دودة القطن تتجمع حول مصابيح الكيروسين والكلوبات، التي تضيئ شوارع القرية، وأولاد الفلاحين، تتجمع تحتها للعب والتحدث في ليالي الصيف الحارة.

في هذه الأثناء، كان مرتب والدي ثلاثة جنيها في الشهر. هو مبلغ كبير رشحه للزواج من والدتي. لأن عائلة والدتي كانت من أثرياء الريف، لكن والدي كان من عائلة فقيرة.

وجد والدي فرصة عظيمة للعمل بشركة أسمدة بمرتب أربعة جنيهات. لكن بسبب قيام الحرب العالمية الثانية، أفلست الشركة وقامت بتسريح والدي. ظل عاطلا، وهو متزوج وله طفل، لمدة عامين. عاد بعدها إلى العمل في بنك التسليف بواسطة أحد الباشوات بتوع زمان.

كان يأخذ والدي مصروفة، أثناء تعطله عن العمل، وقدره قرش صاغ واحد كل يوم. يذهب به إلى القهوة لقضاء بعض الوقت. لا تزال هذه القهوة موجودة ببلدتنا حتي الآن، لكن مالكها الأصلي مختلف عن مالكها الحالي.

في أحد الليالي، كان الظلام دامسا بسبب غارة قامت بها الطائرات الألمانية علي وجه بحري أيام الحرب العالمية الثانية. جاء فلاح يطلب كوبا من الشاي. لكن الشاي أثاء الحرب لم يكن متوافرا بكثرة.

قرر صاحب المقهى عمل كوبا من شراب الكركديه بدلا من الشاي. ظنا منه أن الفلاح لن يلاحظ ذلك بسبب العتمة. ما أن رشف الفلاح رشفته الأولي، إلا أن هب واقفا صارخا موجها غضبه للجرسون: "مين قال لك تعصر عليه ليمون".

عزت قدري، شاب موسيقي خجول متواضع. وقع في حب فتاة من الفلاحات. طلب وساطة الشيخ محمد لكي يذهب ويفتح الموضوع مع أهل العروسة.

بادره الشيخ محمد:
إنت معاك فلوس؟ أجاب عزت قدري:
أيوه، أنا محوش 20 جنيه.
طيب هاتهم، وربنا يفعل ما فيه الخير. إنتظر هنا على الكوبري لغاية لما أقنع أهل العروسة.

ظل عزت قدري على الكبري لغاية ما "رصرص" من البرد في يوم شتاء بارد. الوقت يمر ببطئ حتي منتصف الليل. لا حس ولا خبر للشيخ محمد. بعد فترة وجده عائدا بخطى متثاقله.
إيه يا شيخ محمد، وافقوا؟ لا إجابه.
وافقوا ياشيخ محمد؟ برضه، لا إجابه.
إنت ما بتردش ليه، قلقتني؟

يا أخي إخفه. هم وافقوا لي إلا بالعافية.
الله، هو إنت تزوجتها يا شيخ محمد؟
أيوه.
طيب وفلوسي؟
حين ميسرة، إبقى خدها في الوسعة.

كان أخو جدتي غاوي تصليح ساعات الجيب والمنبهات القديمة. كانت له محاولات فاشلة في تحويل النحاس إلى ذهب. في يوم من الأيام، حضر لزيارة جدتي ومعه ساعة جيب قديمة.

لم يصبر حتي يعود إلى داره، فجلس وسط دار جدتي وطلب غطاء حلة. جلس القرفصاء، وغطاء الحلة على الأرض الترابية أمامه. ظل مع كوب الشاي، يفكك الساعة بمفك صغير، ويضع أجزاءها الدقيقة في غطاء الحلة بترتيب معين، يفيده في إعادة تركيبها لاحقا بعد تنظيفها وتزييتها.

لكي تقوم جدتي بالواجب نحو أخيها الضيف. فتحت باب الزريبة، وظلت تطارد ديك عفي، لكي تعده للعشاء. لكن الديك كان يحاول الهرب بحياته، لأن الحياة عزيزة على كل المخلوقات حتي الديوك.

ظل الديك يجري هنا هناك وجدتي خلفه بالسكين. وفجأة وعلي غير المتوقع، هوب نط في قلب غطاء الحلة، وإذا بأجزاء الساعة الدقيقة تتبعثر في كل مكان على الأرض الترابية.

في منزل جدتي، عندما تهدأ الريح ويطبق السكون، تستطيع أن تسمع صوت القطار. وأيضا إذا وقفت أمام الدار، تستطيع أن تري شراع المراكب التي تمر بالنهر، تظهر من بين أشجار النخيل من بعيد.

كنت وأنا طفل صغير، عندما أسمع صوت القطار، أو أرى أشرعة المراكب، أصاب بحزن عميق لا أدري سببه. هل كان عقلي الباطن يدرك مسبقا أنني سوف أتغرب عن بلدي معظم عمري؟ ربما.

فلاح بسيط فقد ابنته، وفقد معها عقله. فملأ حجره بالطوب والزلط. وأخذ يرمي الطوب إلى السماء وهو يصرخ، قائلا: "هو أنت لم تجد غير بنتي تاخدها". الناس تجري وراءه وتقول: يا راجل حرام عليك، كفرت بالله. وهو مستمر في إلقاء الحجارة والزلط.

فلاح آخر إختطف الأشقياء ابنه، طلبا للفدية. عندما بلغته رسالة اللصوص، أجاب: "خليهم ياخدوه، على الأقل أكون إرتحت من أكله". فترك اللصوص الطفل في اليوم التالي.

اقترب طفل صغير تدل ثيابه على فقر مدقع. ويدل لون بشرته على سوء تغذية شديد. أعطاه أحد المارة قطعة من الحلوى. إذا بالطفل يأخذ قطعة الحلوى، ويذهب إلى مجموعة أطفال كانت تراقبه من بعيد. ويقوم بتقسيم الحلوى فيما بينهم، حتى يحصل كل منهم على جزء صغير. فهل يحدث هذا في بلادنا الآن؟

البقرة بالنسبة للفلاح، هي كل شئ. عليها يعتمد الفلاح في المأكل وأعمال الحقل. كانت هناك بقرة تسير على حافة بئر الساقية، فسقطت في البئر.

هرول الفلاحون الذين كانوا بجوار الحادث، وحاولوا إنقاذ البقرة، لكن دون فائدة. حاولوا الاهتداء إلى صاحبها، لكنهم لم يعثروا له على أثر.

عندما تيقنوا من قرب موت البقرة. قاموا بذبحها، وبيع لحمها بينهم. ثم جمعوا ثمن البيع في صندوق، حفظوه كأمانة حتي يظهر صاحب البقرة. هل نفعل ذلك الآن؟

كان هناك نفر من اللصوص، رغبوا في السطو ليلا على منزل تسكنه فلاحة عجوز. أثناء نومها، دخلوا الدار وعبثوا بكل أرجائها، بحثا عن أي شئ ذي قيمة. أعياهم البحث، ولم يجدوا غير مخزون الدار من الخبز البارد.

شعرت العجوز بحركة غير عادية، فقامت من نومها، وفتحت باب غرفتها، لترى في ضوء القمر، مجموعة من الأشقياء تجلس القرفصاء في صحن الدار وتأكل خبزها الجاف.

إذا بها تعود إلى غرفتها لتحضر طبق ملئ بالقشدة وتضعه أمام ضيوفها وأولادها، وتتركهم متمنية لهم الخير وتعود لتكمل نومها. ذهل اللصوص من شجاعة السيدة وكرمها، وقرروا ترك بعض النقود لها تعبيرا عن شكرهم وامتنانهم البالغ.

أول ما أذكر بالنسبة للمدارس، هو تجربتي الأولى بمدرسة أولية بقرية السماكين بالشرقية. لم أكن مقيدا بالمدرسة بسبب صغر سني. كنت أحضر الفصول كطالب غير مقيد.

لذلك لا يصرف لي غذاء بالمدرسة. فكان المدرس يعطيني من نصيب التلامذة الغائبين. وإذا لم يكن هناك غياب، كان مدرس الفصل يقتطع بعض الخبز والغموس من التلاميذ ويعطيه لي.

كان المدرس من حين لآخر، يطلب منا إحضار حفنة من الغلال، قمح أو ذرة أو فول ناشف. بحجة تعليمنا العد والجمع والطرح. وكانت حصيلة هذه الغلال، تذهب إلى المدرس في نهاية كل درس.

كان عمدة قرية السماكين من أثرياء الريف، يمتلك مئات الأفدنة الزراعية من أجود الأراضي. وكان يقوم في مناسبات كثيرة بعمل صوان رهيب يدعوا إليه كل ضباط وعساكر وخفر الشرطة، والعاملون في الوحدات الصحية والمدرسين والعاملين في بنك التسليف وباقي موظفي الحكومة.

كان يحضر الطباخين والسفرجية من البندر، ويحضر فرق موسيقية، فرق المطافي. لأن كل فرق المطافي في ذلك الزمن، كانت تتقن العزف الموسيقي وتعمل كفرق موسيقية بالأجر، وفي المناسبات الوطنية، بدون أجر. عندما لا تكون هناك حرائق تستدعيهم للإطفاء.

كانت تذبح الذبائح، وتكنس الأرض، وترش بالماء، وتفرش بالرمل الأبيض الناعم. وتفرش الموائد بالقماش الأبيض. وتوضع عليها اللحوم وديوك الرومي وذكور البط والفراخ والحمام وطواجن الفرن من فريك ورز معمر وفطائر ومشلتت وجميع أنواع الحلويات والفاكة والمكسرات، والماء المثلج المعطر بماء الورد والزهر والعصائر والمشروبات.

كان موسم الجفاف يأتي في فصل الشتاء. فتجف المياة من الترع. ويظهر قاع النهر، إلا من بقع صغيرة تجاهد الأسماك في البقاء بها حية. كانت وزارة الري تقوم بتطهير الترع وتعميقها ونقل الطمي منها أثناء فترة الجفاف.

كانت بالنسبة لنا ونحن أطفال، عالم آخر وتجربة مثيرة ومتعة لا تضاهيها متعة، نشاهدها كل عام. سواء كانت فترة الجفاف، أو عندما يأتي الفيضان ويمتلئ النهر بالغرين والخير، ويتغير لون الماء إلى اللون الأحمر، لون الحياة.

الفصل الثاني

القرية التي ولدت فيها قرية زراعية في شرق الدلتا. لا شئ يميزها عن باقي القرى. ربما هذا سر جمالها وسحرها. في شرقها، ترعة صغيرة موازية لخط سكة حديد، يمتد بمحازاته أعمدة التليفونات والتليغراف. كل منها، يحمل بطاقة شخصية في شكل أرقام، تحدد موقعه ومكانه الفريد. ترتص على مسافات متساوية. كأنها حرس حدود يبغي منع زمن جميل من الهرب والهجرة من البلاد إلى غير رجعة.

في الجانب الغربي من القرية، تمتد ترعة أكبر على جانبيها أشجار الصفصاف والكافور والساسابان، يطلق عليها الأهالي البحر. عليها كوبري لمرور المشاة والدواب، وكوبري آخر يمر عليه قطار صغير يسمى "سوارس". يربط هذه القرية، بقرية أخرى لا يمر عليها خط السكة الحديد الأول.

سوارس يختلف عن ساويرس. الأول هو اسم عائلة الإخوة فيلكس وجوزيف ورفائيل سوارس. أتوا إلي مصر في نهاية القرن التاسع عشر، وكان رفائيل سوارس هو المستشار الاقتصادي للخديو عباس حلمي الثاني ابن الخديوي توفيق ابن الخديوي إسماعيل. أما ساويرس، فهو رجل الأعمال المصري المعروف "نجيب ساويرس"، صاحب شركات أوراسكو للإتصلات والتكنولوجيا.

الإخوة سوارس كانت لهم أعمال إقتصادية مجيدة في مصر. منها: إنشاء شبكة خطوط سكك حديد سوارس عام 1889م في كل الدلتا والصعيد، لربط القرى والنجوع ببعضها. وهي خطوط سكك حديد صغيرة الحجم. تختلف عن شبكة خطوط السكك الحديدية الكبيرة

الحالية، التي بدأت بخط القاهرة-الإسكندرية في عصر عباس حلمي الأول في منتصف القرن التاسع عشر.

كذلك قام الإخوة سوارس، بعمل خطوط مواصلات في القاهرة تسمى عربات سوارس تجرها الخيول. قاموا أيضا بمد خط سكة حديد بين باب اللوق وحلوان. وعمل مرافق وخدمات سياحية في حي حلوان. وإنارة شوارع القاهرة بالكهرباء لأول مرة عام 1899م قبل مدن كثيرة في أوروبا. وهم الذين أقاموا حي المعادي بالقاهرة.

بناء على نصائح رفائيل سوارس للخديو عباس حلمي الثاني، تم إلغاء الدائرة السنية، التي كانت تشبه القطاع العام أيام حكم الرئيس عبد الناصر، وتحويلها إلى قطاع خاص. وتم بناء خزان أسوان وخزان قنا على النيل لتوليد الكهرباء ولزيادة الرقعة الزراعية.

الجدير بالذكر أن طلعت حرب ، الاقتصادي الكبير الذي أنشأ بنك مصر والعديد من الشركات الوطنية، كان من تلاميذ إخوان سوارس الذين غادروا مصر منذ مدة طويلة وأسدل على تاريخهم النسيان.

كان كل سكان القرية من الفلاحين يعملون في الزراعة. يسكنون في بيوت مبنية من الطمي ومعروشة بالحطب وجزوع النخل. هذه البيوت لم تتغير منذ أيام قدماء المصريين. سألت مرة جدي: كيف بنيت هذا البيت ياجدي؟ فأجاب ببساطة:

"دعوت جدك عرفه وجدك توفيق وجدك مصطفى واثنين من الجيران. قمنا بعمل معجنة هنا وخلطناها بالتبن." وأشار بإصبعه أمام البيت. "ثم

قمنا ببناء البيت في خلال عدة أيام. عندما تزوج والدك، قمنا ببناء الدور الثاني". هذا المنزل عاش أكثر من ثمانين سنة. ليست هناك أزمة سكن، ولكن قلة حيلة وأزمة عقول.

كانت أمام البيت أرض خالية ملك الحكومة، تزيد مساحتها على الفدان، تليها الغيطان تمتد حتى النهر. وكانت كل نوافذ البيت والباب الرئيسي تستقبل في الصيف رياح الشمال الباردة الآتية من أوروبا.

عندما تدخل البيت، تجد صالة وعلى يدك اليمين "المنضرة" أو غرفة الضيوف. بها أربع شبابيك. اثنان يطلان على الواجهة، وإثنان على حارة جانبية.

على الشمال تجد حمام يسميه الفلاحون "الكنيف" أو "بيت الراحة". به بابان، الأول للضيوف والثاني لأهل الدار. ثم تجد طرقة أمامية صغيرة تنتهي بصالة ثانية. على اليمين تجد غرفة تسمى مقعد بها فرن بلدي وطاقة صغيرة للتهوية ولإخراج الدخان.

الفرن لا يستخدم في الخبيز، ولكن للتدفئة في أيام الشتاء قارصة البرد، يسمي "الفرن الجواني". على الشمال، تجد غرفة أخرى بها فرن أيضا وطاقة صغير. في نهاية الصالة تجد الزريبة والفرن البلدى الرئيسي الذي يستخدم في الخبيز ويسمى "الفرن البراني". ثم سلم داخلي إلى الدور الثاني.

في الدور الثاني، تجد خمس غرف تسمي مقاعد. اثنان يفتحان نوافذهما على الواجهة البحرية. واثنان على الحارة الجانبية. أما الغرفة

الخامسة، فتفتح على الصالة الداخلية الغير معروشة والتي تسمى "الحضير" وتستخدم كمخزن.

في فصل الشتاء عندما يشتد البرد، توقد النار في أحد الأفران الموجودة في القاعات. وتفتح الطاقة والباب حتي يتسرب الدخان إلى الخارج. ثم تقفل الطاقة والباب لحفظ الحرارة.

بعد الغروب، تفرش القاعة بالحصر وتوضع فوقها الطبلية. وهي طاولة مستديرة قصيرة الأرجل يتجمع حولها أهل الدار وهم يجلسون القرفصاء لتناول الغذاء. كلمة "طبلية" مشتقة من الكلمة الإنجليزية (Table).

بعد العشاء، على ضوء مصباح كيروسين يرسل أشعته البرتقالية، يجتمع الكبار للحديث والحكي، وتناول الشاي والقهوة مع الفطائر والحلوى. يلعب الأطفال أو يقومون بأداء واجب المدرسة. ثم يأخذ كل منا كراسته فرحا إلى جدنا، وننتظر حتي يتم صلاة العشاء، لكي نريه انجازاتنا الكبيرة في المدرسة.

لا تليفزيون ولا راديو ولا تليفون ولا انترنت. أجمل أيام وأسعد أوقات مرت بنا ونحن أطفال. أجمل أيام حياتي، هي التي قضيتها في أحضان أسرتي. في بيت جدي وجدتي، وعندما كانت تحضر عمتي وأولادها لتناول العشاء وقضاء الليلة معنا.

من الألعاب التي كنا نلعبها ونحن جلوس، نمد أرجلنا. ثم يقوم أحدنا ببداية عد الأرجل مع قول:

"حجيلي بجيلي
كمن جلجيلي
ياباب السيد
يا منقوش
يا حابك العمة
علي الطربوش
يا خوفي منك يا سعدة
مركوب الخير بلا حدة
حتتش بتتش
ياللي تتتش"

ومن ينتهي إليه العد، يقوم بثني رجله. ثم نكرر هذا بالنسبة للأرجل الباقية. إلى أن ننتهي إلى رجل واحدة، يكون صاحبها هو الفائز.

واضح من كلمات اللعبة أن تاريخها يرجع إلى الحروب الصليبية. باب السيد ربما يعني مقام السيد البدوي. وكله حرب وكله صيد، وياخوفي منك ياسعدة. سعدة هنا جاءت في السيرة الهلالية كالآتي:

"فإن أبا زيد ذهب مع أتباعه الى تونس ليبحث عن ارض خصبة، لما حلت المجاعة بنجد. فلما حلوا بتونس واتصلوا بالبربر، حدث ان وقعت "سعدة" بنت الزناتي خليفة، وهي في البربر، في حب "مري"، احد اصحاب ابي زيد. وقد وقعت حروب بني الهلالية والزناتية بسبب ذلك. انتهت بقتل الزناتي خليفة. ثم اختلف الهلاليون فيما بينهم على قسمة املاك الزناتي خليفة. وثارت الحرب بين أبي زيد ودياب، وانتهت بقتل دياب لأبي زيد."

لم أشعر بالأمان والدفئ والحياة بمعناها العميق إلا في هذه الأيام السعيدة، التي ذهبت ولن تعود. لقد اختفى أبطال هذا المشهد أو كادوا. وبتنا نلتحف بهمومنا ومتاعبنا، حتى أصبحنا لا نرى شيئا أمامنا.

أخذت الحداثة والمدنية منا الكثير. دفئ الأسرة وحبها ورعايتها. وأصبحنا جزرا منعزله عن بعضها. نوجد مع بعض في نفس المكان، ولكن عقولنا وأرواحنا وقلوبنا بعيدة. نتخاطب عن بعد، ونتصادق عن بعد، نحب ونكره عن بعد.

مع طلوع الفجر، تجد صوت أجراس الكنائس يمتزج فى توافق تام مع الآذان للصلاة من المساجد. دعوة لكل تائه. وشفاء لكل نفس معذبة. وتجد الحمام الأبيض يستحم في أشعة الشمس الذهبية. يرقص باليه الصباح في الأفق البعيد، بين الأبراج والمآذن والأشجار. سمفونية كونية غاية في الرقة والجمال.

يستيقظ الفلاح قبل طلوع الفجر. وكما يقول بيرم التونسي، يستيقظ لكي يوقظ الديكة. يقوم بصلاة الفجر، ثم يخرج دابته من الزريبة ويضع فوقها المحراث، ويتوكل على الله. يسحب البهيمة وراءه ذاهبا إلى الغيط. وتجد كل الفلاحين تذهب إلى الحقول في نفس الوقت.

الشوارع مزدحمة في الصباح. الأبخرة تخرج مع الزفير والكحة، ومن أفواه المواشي في أيام الشتاء القارص. الفلاحات والبنات الصغيرات تجري وراء البقر والجاموس لجمع الروث في مقاطفهن. لخلطها بالتبن

ونشرها كأقراص في الشمس، لإستخدامها كوقود للطبخ أو كعازل للحرارة على أسطح البيوت. ليس هناك فاقد لأي شئ.

يتكرر المشهد مع الغروب. حينما يعود الفلاحون من الحقول. وقفت في أحد الأيام ساعة الغروب بجوار الكبري، أعد الجاموس العائد من الحقل، فوصلت إلى 150 جاموسة، ثم مللت العد وتوقفت.

المبيدات الحشرية لم تكن معروفة. دودة القطن كانت تقاوم باليد. ال"دي دي تي" لم يعرف إلا في الخمسينات.

لذلك لم تكن الأمراض الخبيثة منتشرة بكثرة كما هو الحال الآن. لكن الفلاح كان يعاني من أمراض البلهارسيا والإسكارس والإنكستوما. وهي أمراض مستوطنة بسبب عدم وجود مياة شرب نقية.

هذه الأمراض يمكن علاجها والسيطرة عليها بسهولة. وكانت الأوبئة مثل الكوليرا تحصد الفلاحين حصدا. عندما ينتشر الوباء، تقطع المواصلات. وتصبح كل قرية معزولة تماما عن جيرانها لأيام أو شهور. ولولا اكتفاؤها الذاتي وعدم حاجتها للمدينة، لمات سكانها جوعا.

كان الفلاح لا يذهب إلى المستشفى إلا مرة واحدة وأخيرة. محمولا على دابة ومسنودا من اليمين ومن الشمال بالأقارب. عندما تسمع أن "أبو مصطفى خدوه الاسبتالية"، أي المستشفى، تتوقع أنك ستقوم بالعزاء قريبا.

الفلاحة لديها اكتفاء ذاتي كامل. تقوم بتربية الفراخ والبط والأوز والحمام والأرانب. وتقوم بعمل الجبن والزبدة من لبن الجاموسة. وتأخذ حصيلتها من البيض والجبن والزبدة، وما تستغني عنه من الطيور، إلى السوق لبيعه وشراء ما يلزم البيت من سكر وشاي وبن وصابون وتبغ ومعسل لزوجها.

الفلاحة لديها محصول العام من القمح والذرة، وتقوم بالخبيز في منزلها ولا تشتري العيش البلدي أو العيش الفينو. العيش البلدي كان يسمى العيش الخاص لندرته وكان يباع فقط يوم السوق هو والطعمية كغذاء مؤقت للبائعين. وكانت الفلاحات ترددن من باب التفكه:

"بتحبي مين يا بهانة – بحب الشيخ علي"
"بجيب لك إيه يا بهانة – طعمية وعيش طري"

عندما تقوم الفلاحة بخبز العيش، تجد كل جيرانها الفلاحات تقمن بالمساعدة، في العجين و"التقريص" و"الحمي" والخبيز. العجين يتم في أوعية فخارية كبيرة تسمى "اللقان". تقوم به الصبايا من أهل البيت والجيران. لأنه يحتاج لمجهود عضلي كبير. يخلط العجين مع الخميرة عن طريق اللت والعجن. الخميرة تؤخذ عادة من عجين خمران سابق من الجيران. عملية احضار الخميرة مهمة جدا، وتسمى "نبيت على الخميرة".

يترك العجين ليلة كاملة قبل الخبيز. المرأة التي تقوم بالخبيز تسمي خبّازة. وهي غالبا ما تكون محترفة. التي تقوم بالتقريص، تجلس بجوار الخبازة لتناولها العجين الخامر، وتضعه على المطرحة رغيفا

رغيفا. الثالثة تجلس بجوار فتحة الفرن السفلى لتزويد الفرن بما يحتاجه من حطب، أو لتهدئة النار، برش الماء عليها عندما تزيد عن اللازم. الحطب المستخدم هو حطب القطن ويسمى الحطب الهندي، وحطب الذرة ويسمى الحطب الشامي.

المطرحة مصنوعة غالبا من جريد النخل على شكل دائرة كبيرة نسبيا لها يد. تقوم الخبازة بفرد الرغيف على المطرحة وادخاله إلى الفرن وسحبه عندما ينضج. هناك قطعة من القماش تبلل بالماء وتوضع أعلى عود حديد، تستخدم في تنظيف عرصة الفرن. هذه القطعة تسمى "مصلحة". ولا أدري أصل هذه التسمية. وربما اسمها يختلف من محافظة إلى أخرى.

بعد الخبيز، تعمل الفطائر والمشلتت وطواجن الفريك والرز المعمر وطواجن السمك. في النار المتخلفة من الخبيز، يدمس فيها الفول والعدس وتشوى فيها البطاطة. أثناء الخبيز، تقوم طفلة صغير بتوزيع العيش المخبوز على الجيران. ويقوم الجيران بفعل نفس الشئ عندما يقومون هم أيضا بالخبيز.

كانت جدتي تقوم بالخبيز داخل بيتها. وكانت تقوم بتربية الحمام والفراخ والبط. وكان لديها زلع جبنة قديمة. عمر الواحدة منها يبلغ عدة سنوات. لون الجبن القديم أصفر ذهبي وطعمه وملمسه مثل الزبد.

كانت تربي النحل على الحضير في الدور الثاني من بيتها. يأتيها النحال لقطف العسل والشمع مرة أو مرتين في العام. هكذا كانت المرأة المصرية منذ آلاف السنين. أعظم عقل اقتصادي عرفة التاريخ. عندما

ننظر إلى الهرم الأكبر والحضارة المصرية، يجب أن ننظر أيضا إلى المرأة المصرية التي كانت وراء هذه الحضارة العظيمة.

هذه السيدة، علمت ولديها في وقت لم يكن أحد يرسل أولاده للمدرسة لحاجة الحقول إليهم. لم تكن تعرف القراءة أو الكتابة. لكن، كان لها ذكاء خارق وكبرياء شديد. وكنت أري والدي وعمي الذي كان يعمل مهندسا بمصلحة التليفونات، يلجأون إليها لطلب الرأي والمشورة في الملمات والخطوب. وكانت آراؤها دائما صائبة.

في يوم من الأيام، طلب والدي من أحد أقربائه شراء جوال أرز . عندما وصل جوال الأرز إلى منزلنا وعلمت جدتي بالأمر، بادرت والدي بالسؤال: "هل أعطيته ثم الأرز" فقال والدي، لا. عندما أقابله سوف أعطيه النقود. فقالت جدتي على الفور: "قم الآن إلى داره واعطه النقود". وكان والدي يشرب الشاي، فتركه وخرج مهرولها إلى دار قريبه ليعطيه ثمن جوال الأرز.

هذه السيدة العظيمة، كانت تعيش وحدها في منزلها في نهاية البلدة. بعد زواج أولادها وبناتها ووفاة جدي. عندما كنت في زيارة مصر منذ عدة سنوات، طلبت زيارة قبرها لقراءة الفاتحة. فوجدته وحيدا يقع هو أيضا في نهاية القبور، بجواره شجرة صبار، وأمامة الحقول الخضراء، تماما كما كان بيتها الذي تركته.

القرية كانت أثناء النهار، تكاد تخلو تماما من المارة. إلا من طفل صغير يلعب هنا أو امرأة تقوم بدلق ماء الغسيل في الشارع. وقت العصاري، تشم رائحة الدخان والقدور ومحشي الكرنب من بعيد.

في الغروب، وأثاء عودة الفلاحين من الحقول، يأتي رجل يلبس الجلباب ويركب دراجة ويحمل على كتفه سلم خشبي، لكي يشعل مصابيح وكلوبات الشارع. وبعد العشاء، تخلو شوارع القرية من المارة. لا تسمع بها إلا أصوات خفر الليل وهي تنادي بعضها البعض.

عندما كنت أسير بجوار والدي أثناء الليل، أرى الظلال التي ترسلها هذه المصابيح على الأرض. تتناقص وتتزايد حسب الاقتراب أو الابتعاد عن مصدر الضوء.

السماء كانت مرصعة بفصوص الماس والفضة. لا تلوث ولا شبورة ولا سحابة سوداء. القمر يتلألأ في كبد السماء. يسير معك أينما تذهب وعندما تقف يقف. كأنه حريص على صداقتك. أثناء خسوف القمر، كانت الفلاحات تضرب على الطبل وعلب الصفيح وتنشد:

يا قمرنا يا طبق نحاس يا منور على كل الناس
يا بنات الحور سيبوا القمر يدور
يا بنات الجنة سيبوا القمر يتهنى

هذه البلدة لم تغير عاداتها وتقاليدها منذ القدم. وكان يقال أنه لو بعث سيدنا نوح من جديد لعرفها من أول نظرة. لأنها لم تتغير قط. فلا تزال تأكل السمك في يوم الجمعة من كل أسبوع. عادة بقيت معها منذ أن كانت تدين مصر بالمسيحية قبل مجئ الإسلام.

كان في يوم الأحد "حد السعف" أو "حد الخوص"، يزين الفلاحون بيوتهم بجريد النخل، ويجدلون الخوص في شكل قلوب ويعملون منها الخواتم. وكانت تعمل من سنابل القمح وهي خضراء، عرائس وأمشاط. تعلق على حوائط البيوت والأبواب وتترك للعام التالي.

وكان في يوم الاثنين التالي "اثنين العصيدة"، تعمل العصيدة وتؤكل في يوم الثلاثاء للتخلص من دم الشتاء الفاسد. في يوم الأربعاء "أربع أيوب"، تدلك الأجسام بنبات الرعرع، ويرش ماء الحموم أمام البيت. أو يذهب الرجال للاغتسال في الصباح الباكر بماء النهر.

في يوم الخميس "خميس العهد" أو "خميس العدس"، كان يدمس العدس ويؤكل في نفس اليوم، وتخرج النساء للقرافة في الصباح الباكر لزيارة قبور موتاها، وتوزع الرحمة والفطائر التي تسمى "قبوري" نسبة للقبور.

كان يتجمع مقرئوا القرآن للقراءة أمام القبور بأجر رمزي أو للحصول على بعض فطائر الرحمة. وكان من بينهم، طلبة المعاهد الدينية الفقراء والمحتاجين.

في يوم من هذه الأيام، جاء مقرئ متأخرا، ولم يجد إلا فلاحة عجوز فقيرة أمام أحد القبور. نظر المقرئ إلى السلة أمام الفلاحة، فلم يجد بها إلا فطيرة صغير باقية. تركها بسرعة وأخذ يبحث بين القبور عن زوار آخرين، لكنه لم يجد غير هذه السيدة المسنة. عندما علم أن قراءته ومجهوده سوف يذهبان هباء، اقترب من السيدة قائلا: تجيبيها بسورة "قل هو الله أحد؟"

الجمعة، كانت تسمى الجمعة الحزينة. تؤكل فيها الفطائر مع البيض المسلوق. والسبت "سبت النور"، تأتي الفلاحات إلى جدتي لتكحيل عيون أطفالهن الصغار لحمايتها من أمراض العيون. ويقوم الفلاحون بزراعة شجر الجميز، وكان الاعتقاد، من يزرع شجرة في هذا اليوم، توهب له الحياة طوال العام.

يوم الأحد "عيد القيامة"، تلبس الملابس الجديدة ويؤكل محشي ورق العنب. ويتم انبات بذور الترمس والحلبة والفول. وتعلق جدائل من أغصان رفيعة من أشجار الصفصاف والكافور، لتزيين الأبواب والشبابيك. ويعلق البصل الأخضر وسنابل القمح والنباتات العطرية. وتصبغ أيادي الصغار والنساء بالحناء.

ويعمل الأولاد دمية على شكل خيال المآته. يأتون بجلباب ويضعون مكان اليدين عصاة طويلة ومكان الرأس شيئا مستديرا أو قرصا ناشفا من روث البهائم. ويدخل أحد الصبية بجسمه داخل الجلباب، رافعا الدمية بيديه إلى أعلا. ثم يقومون بالطواف في شوارع القرية بين العصر والمغرب.

في ليلة شم النسيم، يوم الأحد بالليل، يجمع الحطب والأخشاب في مفترق الطرق وأمام البيوت. ويشعل فيها النيران، ويقفز من فوقها الأطفال والشبان، قائلين: "يا براغيت الشتوية روحي لعمتي مكية" أو "يا براغيت حارتنا روحي لفاطمة جارتنا".

في يوم شم النسيم، يبدأ الاحتفال قبل شروق الشمس. يذهب الرجال في الفجر للاستحمام في مياة النهر. وتقوم النساء برش الماء داخل وأمام عتبة البيت. كانت تعمل المأكولات الخفيفة للفسحة خارج المنزل، أهمها: البيض المسلوق الملون، والفسيخ والسردين المملح. والخس والبصل الأخضر والملانة.

الفسحة كانت بالذهاب للغيطان، أو على ضفاف الترع، أو بركوب المراكب الشراعية. والمرح واللعب والأكل الجماعي. ثم العودة ببعض الزهور والورود والنباتات العطرية.

كانت محطة القطار تسمي متنزه. حشائش خضراء وزهور وورود وشجر. وكان شريط السكة الحديد، تحيطه الأسوار من الجانبين لحماية الناس والدواب من الحوادث. وكانت توجد بكل محطة، خزان كبير لتزويد القاطرة بالماء، لأن القطارات كانت كلها تعمل بالبخار .

كانت البوابات عند المزلقانات تقفل قبل مرور القطار. الأجراس والأنوار المتقطعة تبدأ في العمل ولا تتوقف حتي يمر القطار. لم نسمع بحادثة واحدة بسبب الإهمال والاستهتار بأرواح الناس. كل حوادث القطارات كانت بسبب خطأ الأفراد والركوب أو النزول أو المرور من تحت عربات القطار وهو يسير.

كانت عربات القطار في منتهى النظافة. كل الشبابيك من زجاج وشيش والمراوح تعمل. الدرجة الأولى والثانية غاية في الروعة، صالونات جلدية ومساند. ومراوح في السقف. وتابلوهات فنية على الجدارن.

كان في بلدنا تاجر قطن متعود التعامل مع خواجة أجنبي. يقوم التاجر بشراء القطن من الفلاحين وتوريده بسعر البورصة للخواجة. وكانت عملية البيع تتم مشافهة وبدون أوراق أو روتين حكومي. بالتليفون، سعر البورصة كام يا خواجة. بكذا. طيب أنا عندي كام قنطار جمعتهم. فيجيب الخواجة بالتليفون، وأنا اشتريت.

في يوم من الأيام بعد أن باع التاجر للخواجة محصوله من القطن بالتليفون، ارتفعت أسعار القطن في البورصة بشكل جنوني. أصيب الخواجة بخوف شديد وتملكه القلق من أن يرجع التاجر في كلامه، عندما يعلم بالسعر الجديد للقطن في البورصة. فرفع سماعة التليفون وطلب التاجر:
يا خبيبي أسعار القطن ارتفعت خالص، وأنا اشتريت منك بالسعر الرخيص. فماذا تنوي أن تفعله؟
وجاءت الإجابة: "عيب يا خواجا، أنا أعطيتك كلمتي".

لا إمضاءات ولا ورق ولا تسجيل للمكالمة ولا شهود. لكن التاجر، فضل أن يخسر ما يقرب من خمسة آلاف جنيه فرق أسعار، وهي ثروة طائلة بأسعار ذلك الوقت، على أن يخسر كلمته ويفقد إحترامه لنفسه. تذكرت هذه القصة وأنا أشاهد برنامج "العاشرة مساء" على قناة دريم الذي تقدمه الإعلامية النابهة "منى الشاذلي".

كان موضوع الحلقة هو عمليات النصب التي يقوم بها المحامون والمحضرون الآن للاستلاء على الشقق الخالية التي يتواجد أصحابها خارج البلاد. يقوم هؤلاء، بتزوير عقود بيع العقار الذي تتواجد فيه الشقق.

ثم يقومون ببيع هذه الشقق لآخرين. ونظرا لعدم وجود المالك، يقومون برفع قضايا والحصول على أحكام قضائية بحيازة الشقة أو الفيلا. والمتضرر عليه اللجوء للقضاء. وخذ أربع أو خمس سنوات قضايا. وخذ مثلهم حتى تستطيع أن تسترد حقك المسروق إن استطعت إلى ذلك سبيلا.

هكذا كان المصريون الذين قاموا بثورة 1919م وثورة 1952م. وهذا هو حالنا اليوم. حيث نغوص حتى الأذنين في مستنقع الفساد والإجرام. نتجرع المر ونشرب الذل والهوان وتتراكم ديوننا ولا نستطيع أن ننتج غذاءنا. ونفرح كالأطفال بكسب ماتش كوره هنا أو هناك. لذلك، لا يجب أن نلوم إلا أنفسنا. ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل الثالث

كانت سيارة الأجرة القديمة التي تحمل أسرتي، تقترب مع خيوط الفجر الأولى، من مدينة فاقوس في أطراف شرق الدلتا. وكنت متيقظا بينما أخي وأختي الصغيران يغطان في نوم عميق. وكانت جرذان الحقل والحيوانات البرية الصغيرة، تعبر الطريق أمام السيارة وهي في طريقها إلى المدينة.

أول ما لفت إنتباهي ونحن على مشارف المدينة، هو كمية أعمدة الإضاءة الهائلة وفراشات دودة القطن التي تحوم حولها في حركة دائمة وسط الضباب وشبورة الصباح. نحن الأن في صيف عام 1947م. ولم أكن قد إلتحقت بالمدرسة كتلميذ منتظم بعد.

استأجر والدي منزل قديم به حديقة صغيرة، بها نخلتان تمرهما لا يصلح إلا للتجفيف، وشجرة توت كبيرة ذكر وطلمبة ماء. كانت لدينا خادمة صغيرة من بلدتنا إسمها "روائح". تقيم معنا بمرتب شهري، يتقاضاه والدها، قدره 50 قرشا. كان لدينا جرو صغير، تخلصت والدتي منه وأعطته للجيران عندما اكتشفت أنه دخل قفص الفراخ وقام بإلتهام فرخة كامله في حجمه بمفرده.

كانت والدتي تأخذ النقود المخرومة من الوسط، المليم والتعريفة، وتربطها مع بعض في شكل عقد لكي ألعب به. ولم أكن أفهم قيمة هذه الأشياء ولا معناها. إلى أن اكتشفت يوما أن كل قطعة معدنية من هذه القطع لها قدرة سحرية خارقة. فأنت تستطيع أن تحولها إلى قطعة شكلاطة أو تركب بها المرجيحة أو تشتري بها قطعة لبان. هنا

تحولت هذه القطع المعدنية من أشياء مادية، إلى أشياء أخري لها معنى أعمق.

تم تدريب مجموعة من قرود الشمبانزي على إستخدام النقود المعدنية. بأن وضعوا لهم الأكل في ماكينة تشبة ماكينة الكوكاكولا. ثم قاموا بتدريبهم على إستخدام النقود بوضعها في فتحات والضغط على أزرار في الماكينة للحصول على الطعام.

بعد ذلك، أعطوا كل قرد مجموعة متساوية من النقود وراقبوا سلوكهم. ماذا حدث؟ بدأت القرود القوية تأخذ النقود من القرود الضعيفة بالقوة. والقرود الضعيفة تسرق النقود من بعضها البعض.

عندما بلغت سن السادسة، كان العام الدراسي قد انتصف تقريبا. وبدلا من الإنتظار للعام المقبل، طلب والدي من ناظر المدرسة أن يقبلني كتلميذ منتظم، فلم يرفض. لقد كانت القوانين الحكومية مرنة لها قلب في ذلك الوقت.

المدرسة كانت من المدارس الإلزامية التي أنشأها على باشا مبارك وزير المعارف في عهد الخديو إسماعيل والخديو توفيق. تدرس فيها أصول اللغة العربية والحساب. ينهي الطالب هذه المرحلة، ثم يذهب إلى المدرسة الإبتدائية لمدة أربع سنوات. وبعدها المرحلة الثانوية لمدة خمس سنوات. وكانت توجد أيضا المدارس الريفية، وهي تشبه المدارس الإبتدائية، ولكن لا تدرس بها اللغة الإنجليزية.

تركني والدي عند ناظر المدرسة وغادر مسرعا. فوجدت نفسي في الفصل، بين تلاميذ غرباء لم أعرفهم من قبل. شعرت بخوف شديد ووحدة رهيبة. ثم دخل المدرس وبيده عصا خيرزان رفيعة. جلس على الكرسي بعد أن كتب عدة كلمات على السبورة بالطباشير.

طلب من التلاميذ، بدأ من الصف الأول، القيام وقراءة ما كتبه المدرس على السبورة. التلاميذ تقوم وتقرأ زي العفاريت، والدور يقترب مني ببطء وأنا مرعوب، لا أعرف شيئا مما كتبه الأستاذ. فلم يسبق لي أن تشرفت بمعرفة هذه الكلمات أو غيرها من قبل.

لاحظ طفل من الجيران كان يعرفني، الموقف البائس الذي كنت أمر به. فحاول مساعدتي بالنصيحة. فهمس لي قائلا، "استخبى تحت التخته لغاية ما يفوت الدور". وكانت هذه النصيحة بمثابة طوق النجاة الذي ألقي لغريق.

لكن الخطة لم تنجح، والأمور لم تمر على ما يرام. فما أن اختبأت تحت التخته، إلا وباقي التلاميذ تصرخ بأعلى صوتها: " يا أفندي، فيه واحد هنا مستخبى تحت التخته". بالطبع كانت النتيجة علقة ساخنة من المدرس استخدم فيها العصا والسب وخلافه، ناهيك عن الجرسة والفضيحة أمام اللي يسوى واللي ما يسواش من التلاميذ.

في اليوم التالي، كان والدي في حضور الناظر والمدرس. وعندما تبين للجميع ما حدث بالضبط، قام الناظر بوضعي في فصل آخر. كان الفصل منقسما إلى جزئين بالطول. صفين للطلبة المبتدئين. وصفين

للطلبة المتقدمين. طلبة الصفين الأولين كانت تعرف ب"البُلَدَة" جمع بليد، وطلبة الصفين الآخرين كانت تعرف ب "الشطار".

لصغر سني، انتقلت للمقعد الأمامي في صفوف "البُلَدَة". ونظرا لإهتمام المدرس بي بعد توصية والدي، تقدمت بسرعة في القراءة والحفظ. لذلك أصبحت "الألفا". عندما حضر جدي لزيارتنا وسؤالي عن أحوال المدرسة، أجبت بكل فخر: "أنا ألفا البُلَدَة يا جدي"، ولم أكن أدري أنها شتيمة وليست فخرا.

المدرسة كانت تقع في حي في أطراف المدينة يسمي "إنقيزة". لا أدري أصل هذه التسمية. علمت فيما بعد، ولكني لم أتحقق من ذلك، أن هذه الكلمة تعني المشاغبون. فقد كان لهذا الحي تاريخ مجيد في مقاومة الحملة الفرنسية، وربما تكون جذور الكلمة فرنسية.

المدرسة كانت عبارة عن حوش كبير يقع على جانبيه أربعة فصول على اليمين وثلاثة فصول على اليسار. في الوسط تقع غرفة الناظر وغرفة كبيرة للمدرسين. الفصول كانت مبنية بالطوب اللبن، وأرضها ترابية. لذلك كانت كمية البراغيث أجارك اللّٰه.

كانت هناك صنابير مياة للشرب تصب في حوض مستطيل. ودورة مياة مفتوحة للتبول. كنت أري لون البول أحمر قاني يجري في مجري المبولة السفلي بسبب اصابة معظم التلاميذ بالبلهارسيا، من الإستحمام في الترع.

في يوم من الأيام، تسلل ابن الناظر، وكان طفلا صغيرا عمره سنة أوسنتين، إلى أحد الفصول أثناء فترة الفسحة للعب. وإذا به يخرج مهرولا صارخا بأعلا صوته. جرى أخوه الكبير نحوه ليعرف السبب. فوجد جسمه الطري مغطى بالبراغيث الجائعة. أخذه بسرعة إلى حوض المياة، وخلع ملابس الطفل، ووضعه تحت الصنبور وفتح الصنبور على الآخر. والطفل يصرخ بأعلى صوته.

وقت الظهر، كانت توضع قدر الفول المدمس والعدس أبو جبه والجبنة والحلاوة الطحينية والعيش والبلح واكياس السوداني المملح على طاولات في فناء المدرسة، ويقف التلاميذ صفا واحدا لإستلام وجبة الغذاء المجانية. وكانت الجبن تخلط بالحلاوة فلا تستطيع أن تفصلهما. وكلها وجبات مجانية كانت تسعد وتشبع أولاد الفقراء.

كان أول معرفتي بالكتب، كتاب "و ز ن" الذي كان يستخدم بهذه المدرسة. يبدأ الكتاب بكلمة "وزن" مكتوبة بالخط العريض في صفحة كاملة ومكررة بأحجام مختلفة مع صورة لرجل يحمل ميزان في يده. ثم كلمات "أخذ"، "فتح"، "قعد"، "أكل"، "ضرب"، "ربط"، وهكذا. وينتهي الكتاب ببعض قصص "أيسوب". آخرها قصة الغراب والثعلب وقطعة الجبن.

قصص الحيوانات وصورها في الكتاب، بالرغم من أنها صور مطبوعة بالحفر على الخشب، كانت فيها متعة لا تضاهيها متة أخرى. وكانت السبب في حبي وهيامي بالكتب الذي استمر معي طيلة حياتي.

رأيت بنفسي فلاحا مريضا بالكوليرا يرتمي فى كوخ صغير على الأرض وهو دائم القيئ. الناس تصرخ فى المارة بالإبتعاد. وأخذ رجل من الواقفين عصا طويلة أو جريدة نخل وربط فى آخرها قطعة قماش فى شكل صرة بها رغيف خبز وإبريق ماء. ومد الرجل العصا من بعيد لكى يسقط الخبز والماء بالقرب من المريض بدون أن يقترب منه.

انتشر وباء الكوليرا، فقطعت المواصلات. واصاب الناس هلع شديد. وكانت والدتي تحبسني في غرفة الصالون وتغلق الباب بالمفتاح حتي لا أخرج للشارع.

أثناء هذا الوباء، مرضت أختي الصغيرة بالقيئ. وربما يكون قد أصابتها الكوليرا. وكادت أن تموت بسبب فقدها لسوائل الجسم، فنصح أحد الجيران والدي بإعطائها جرعة صغيرة من "الأفيون" أحضرها معه الجار بعد إذابتها في كوب من الشاي. ازاء حالة الهلع التي كان يمر بها والدي، كان مستعدا لتجربة أي شئ. وكانت هذه هي الطريقة التي شفيت بها أختي.

نظرا لموقع هذه المدينة على أطراف الصحراء، كانت المخدرات من حشيش وأفيون منتشرة بكثرة بين السكان. وكانت عقوبة حيازة المخدرات في ذلك الوقت تعتبر جنحة وليست جريمة. وكان ضباط الشرطة المكلفون بمكافحة المخدرات، هم أنفسهم يجلسون لشرب الحشيش في مجالسهم الخاصة.

أحد هؤلاء الضباط، ذهب للقبض على تجار حشيش في شارع تجاري يعرف بشارع النزّة. وما أن قبض على التاجر، وكان صعيدي، إلا أن

تكاتفت باقي الصعايدة وانهالوا علي الضابط والشرطة المرافقة له، بالضرب بإستخدام القلل الفخارية. فأصابوهم بالتربنة في الدماغ واصابات بالغة في باقي الجسد. نقلوا بعدها جميعا إلى المستشفى بين الحياة والموت.

لم أستمر كثيرا في هذه المدرسة، بسبب انتقال والدي إلى مدينة كفر صقر في محافظة الشرقية. وبها التحقت بسنة أولي ابتدائي. وكانت المدرسة نموذجية بمعني الكلمة. تختلف تماما عن المدرسة الإلزامية في مدينة فاقوس.

المدرسة مبنية مثل القصور بالأعمدة والسلالم الرخامية. والفصول توجد في الدور الثاني بأبوابها الخشبية ونوافذها الكبيرة. والفصل لا يزيد عن عشرين تلميذا. بالمدرسة ملعب كرة قدم وملعب كرة سلة وحظائر للطيور وأحواض للزهور.

جدران الفصول كانت مزينة بالخرائط وصور الحيوانات. والطاولة الكبيرة الموجودة بالصالة، كانت تعرض فيها الفراشات والطيور المحنطة. الفصل الذي كنت به، كان يوجد به دولاب بباب زجاجي، يظهر من خلفه فونوجراف وأسطوانات.

كانت غرفة الرسم والأشغال كبيرة جدا تقع في الدور الأول مزينة باللوحات الفنية التي ترسمها الطلبة. المطعم يقع أيضا في الدور الأول. من حين إلى آخر كانت الوزارة تعرض لنا أفلاما سينمائية ترفيهية

وتعليمية. وكانت تأتي بالحواة لعرض ألعابهم السحرية علينا مع شرح الحيل بعد الإنتهاء منها.

كانت المدرسة مختلطة، أي بنات وبنين. لكن الفصول كانت منفصلة إلى بنات وبنين، في حصص الرسم والأشغال وفي عرض السينما والألعاب السحرية، كان يتم الإختلاط بين الجنسين.

كانت تقدم وجبات ساخنة غذائية. الوجبة مكونة من طبق رز وطبق خضار ولحوم وفواكه، تقدم في أيام السبت والأحد والثلاثاء والأربعاء. أما في أيام الإثنين والخميس، فكانت تقدم لنا وجبات خفيفة مكونة من سندوتشات جبنة رومي وحلاوة طحينية مع البلح أو أكياس السوداني المملح كتحلية.

في طابور الصباح، كان يفتش الناظر علي مظهرنا الخارجي. الشعر يجب أن يكون قصيرا، الملابس نظيفة، الحذاء لامع. في يوم من الأيام، أخرجني الناظر من الصف، وطلب مني برفق قص شعري عندما أعود إلى المنزل.

في هذه المدرسة، تعرفت بكتاب القصص المدرسية. وهو من أمتع الكتب التي مرت بي في حياتي. فهو طباعة دار المعارف. ورق أبيض مصقول ناعم. يبدأ الكتاب بقصة العنزات الثلاثة، وبه قصص كثيرة منها "سرحان بين الغيط والبيت" و "لك يوم"، وقصص أخري مأخوذة من التراث العالمي والمصري والعربي. أختيرت بعناية فائقة لتنمية الخيال، ولكي تساعد في تكوين البراعم الأولى النضرة للضمير والأخلاق، في هذه السن المبكرة من حياة الطفل.

أثناء ذهابي للمدرسة وعودتي منها، كنت أمر على خيمتين لأسرتين فلسطينيتين هاجرا من فلسطين أثناي حرب 1948م وبداية المأساة الفلسطينية، واستقر بهما المقام في هذا الموقع.

كان لدي أحد الأسر طفل صغير مريض يلبس صديري مقلم بالطول. وبعد عدة أيام، وجدت الصديري فوق الخيمة والطفل غير موجود. علمت فيما بعد أنه توفى لرحمة الله لعدم توافر الدواء والعلاج.

بعدهم بقليل، كان يوجد منزل ريفي بفناء كبير تستأجرة أسرة فلسطينية ثالثة. الأب رجل كبير السن ذو لحية بيضاء. الإبن الأكبر شاب دمث الخلق إسمه محمد والإبن الأصغر اسمه حسين به بعض العرج.

الأم تلبس الملابس الفلسطينية المميزة والحزام في وسطها وتقوم بخض اللبن في القربة لعمل الزبد أو بغزل سجادة صوف. وكانت توجد جاموسة مربوطة في فناء الدار. هذه السيدة توطدت العلاقة بينها وبين والدتي، تحولت إلى صداقة بين الأسرتين امتدت إلى مدة طويلة. ساعد والدي الإبن الأكبر في ايجاد عمل مؤقت.

حادثة واحدة مؤلمة مرت بي في هذه السن. لكنها، لحسن الحظ، لم تترك أي أثر سئ في نفسي وأحمد الله على ذلك. فقد أغراني أحد الشياطين الصغار بمساعدته في سرقة علبة ألوان من درج أحد الزملاء. أنا أقوم بالمراقبة وهو يقوم بالسرقة خلال فترة الفسحة. ثم ذهبنا لإخفاء المسروقات ودفنها في فناء المدرسة. تماما كما يفعل محترفي الإجرام.

لكن لحسن الحظ وليس لسوء الحظ، شاهدنا ونحن ندفن المسروقات أحد الطلبة. عندما عدنا للفصل بعد الفسحة، اكتشف المجني علية سرقة علبة الألوان. حينئذ، تطوع الشاهد بإخبار المدرس بالأمر. وكانت النتيجة علقة ساخنة للصوص، جعلتنا نزهد في السرقة مدي الحياة.

لم استمر في هذه المدرسة العظيمة أكثر من عام واحد. بعدها، عاد والدي إلى مدينة فاقوس للمرة الثانية. هذه الفترة كانت مليئة بالأحداث الهامة التي بدأت ذاكرتي تتسع لها، والتي سيأتي ذكرها في الفصول القادمة.

الفصل الرابع

عاد والدي للعمل كأمين شونة بنك التسليف الزراعي بمدينة فاقوس للمرة الثانية. كانت الشونة تقع في نهاية شمال المدينة، في أرض زراعية تبلغ مساحتها عدة أفدنه. محاطة بالأسوار الشائكة. يعمل بالشونة، إلى جانب والدي، موظفان شابان وعاملان وخفيران للحراسة الليلية، يحملون بنادق "الأنفيلد" البريطانية العتيقة.

الفلاحون كانوا يأتون بمحاصيلهم الزراعية من قمح وقطن وخلافه، لإيداعها كرهن للحصول على قروض مالية بفوائد ميسرة. وكان البنك يساعد في التشوين والتسويق ويتعامل مع أكثر من نصف فلاحي مصر.

أنشأه الإنجليز في أول الأمر بإسم "بنك التسليف الزراعي المصري"، ثم تغير إسمه إلى "بنك التسليف الزراعي والتعاوني"، وأعتقد أن إسمه الآن "بنك التسليف التعاوني الزراعي".

كانت توضع الغلال في أجولة ثم ترص في صفوف يسمى كل صف منها "رصة". ويكوم القمح في أكوام كبيرة عالية للتهوية منعا من التسوس والتعفن، يسمي كل منها "هري" أو "لوط".

عندما تميل الشمس نحو الغروب وتصبغ بأشعتها الأرجوانية أكوام القمح، يقوم عمال الشونة بختم النصف الأسفل لكومة القمح بختم خشبي في شكل المستطيل، محفور في سطحة الأملس إسم البنك.

ثم يحمل أحد العمال الختم الخشبي إلى منزل والدي، ويعود به في صباح اليوم التالي. يتكرر ذلك كل يوم خوفا من أن يقع الختم في أيدي خفر الليل، فيقومون بسرقة القمح وإعادة ختم الأكوام المسروقة مرة ثانية.

الحمالون فى الشونة, يعملون طوال اليوم فى حمل أجولة الغلال الثقيلة على ظهورهم الضعيفة بأجر يومي زهيد. وقت الغذاء لا يجدون سوى بصلة ناشفة أو قشر البرتقال المخلل أو اللفت مع الخبز الجاف. وجوه شاحبة صفراء. حفاة الأقدام وملابسهم ممزقة بالية. لكن كانت لديهم دماثة خلق وشهامة عظيمة.

كنت ألعب مع أخي الأصغر بين صفوف أجولة الغلال. فوجدنا ثقبا أسفل أحد الأجولة. أخذنا نعبث بالثقب ونخرج القمح منه. الأطفال في مثل هذه السن، تفعل أشياء عجيبة وغريبة بدون عقل.

المهم، ظل الجوال السفلي الذي به الثقب ينزف القمح ويهبط. ذهبت للبحث عن عصا لكي أوسع بها الثقب. ظل أخي الصغير بجوار الثقب يخرج ما به من قمح. عندما عدت ومعي العصا، لم أجد أخي أو الثقب. إنما رأيت أجولة الغلال قد وقعت فوقه ولم يظهر منه شيئا.

ظللت أناديه بأعلى صوتي، ولكن لا حياة لمن أنادي. جريت بأقصى سرعة نحو والدي أزف إليه الخبر المفزع. لم أسمع سوى كلمة "فين فين" تأتيني من كل الموجودين حول والدي. جريت والكل خلفي إلى مكان الحادث.

رأيت الحمالين تحمل الأجولة الثقيلة بين أيديها بسرعة وتلقيها جانبا كأنها أجولة إسفنج لا قمح. إلى أن وصلوا إلى أخي. وجدوه فاقد الوعي ولكن سليما ليس به كسر واحد. فقد تبين أنه أثناء سقوط الأجولة، سقط جوال بزواية مائلة فوق أخي الصغير لحمايته، وسقطت باقي الأجولة فوقه. هذه الأجولة لوسقط فوق فيل لقتلته في الحال.

لولا تركي الموقع للبحث عن عصا في هذه اللحظة، لكنت أنا أيضا مع أخي تحت الأجولة، ولما كان أحد يستطيع أن يهتدي إلى مكاننا لكي ينقذنا في الوقت المناسب. كيف أفسر هذه الحادثة؟ هل هي العناية الإلهية، أم القدر أم حسن الحظ؟

فى يوم من الأيام وبعد أن نسيت هذا الحادث بمدة، سمعت صخب ومرج فى الشارع فى الصباح الباكر. عندما خرجت لتقصي الخبر، علمت بأن خفر شونة بنك التسليف قامت بالقبض على لص تسلل ليلا لسرقة قمح من الشونة.

حيث أننى لم أكن قد شاهدت فى حياتي من قبل لصا. لذلك كانت صورة اللص فى ذهني لا تختلف كثيرا عن لص السينما وأفلام أنور وجدي. أى رجل عبوس الوجه كئيب المنظر فظ غليظ القلب، يتطاير الشرر من عينيه، ويلبس "فالنة" مخططة بالعرض، وبه جرح غائر فى وجهه. مثل "عنتر ذو الوجه المجروح" في فيلم ياسمين الذي قام به الممثل القدير رياض القصبجي.

جريت مع أطفال الشارع وذهبنا إلى الشونة. وجدناها مفتوحة وبها جمهور غفير، جاء من كل مكان لكى يشاهد اللص. عندما وقع نظري على اللص، شعرت بخيبة أمل كبيرة وحزن عميق.

وجدت فلاحا شابا نحيفا سمح الوجه. لا يختلف عنا كثيرا. غير أنه يلبس جلبابا أزرق بالي، وهى ملابس الفلاحين فى ذلك الوقت. تنزف الدماء من فمه بسبب ضرب خفر الشونه له بكعوب البنادق فى صدره وعلى ظهره. وتعجبت، كيف يكون اللص نحيف القوام سمح الوجه صغير السن؟ هل من الممكن أن يكون اللص إنسانا مثلنا؟

كان منزلنا مكونا من ثلاث غرف وصالة صغيرة وحوش صغير به صنبور مياة وحوض ودورة مياة. الإيجار الشهري ثلاثة جنيهات. أمامنا بقال يلبس العمامة والجلباب البلدي والبالطو.

بجواره دكان يستأجره شاب لا يعرف القراءة ويتاجر في ألواح الثلج والمياة الغازية في الصيف. أثناء شهر رمضان، كان يبني فرنا لعمل الكنافة أمام الدكان. يعول والدته وأخت صغيرة وأخ صغير بعين واحدة.

بجوار دكان الثلج، كان يوجد منزل قديم ينخفض عن مستوى الشارع بدرجة أو درجتين. تسكنه سيدة كبيرة السن سمراء قصيرة لها شعر أبيض أكرت مفلفل، وابنة وابن بنفس السمات، ويبدو أن الأصل سوداني أو نوبي. الإبن له ورشة دوكو لدهان السيارات.

الإبن عندما كان مجندا في الجيش، مارس رياضة رفع الأثقال وتفوق فيها. لذلك، تم إختياره لتمثيل مصر في البطولة العسكرية لرفع الأثقال في إيطاليا عام 1949م. لا أتذكر هل فاز بأحد الميداليات أم لا، ولكنه على أي حال، قام بالإحتفال بالمناسبة.

أقام سرادقا بالشارع. وأحضر مطربين وراقصات. الدعوة عامة ومفتوحة لكل من يستطيع الحضور. الفرقة الموسيقية تجلس على منصة عالية والمطربين يلبسون الجلباب والطربوش والجاكتة، لقد كان وقت شتاء والدنيا برد.

الأطفال تجلس في الصفوف الأمامية وأرجلها لا تصل إلى الأرض، وعدد قليل من الكبار تحضر الحفل. الأغاني، شعبية لعبد العزيز محمود وكارم محمود، مثل: "عيني بترف ياحبة عيني" أو "على شط بحر الهوى"، تذاع بالميكروفون. يتخللها الإعلان عن سبب الحفل والبطولة الخارقة التي تحققت في إيطاليا.

كان يسكن في نفس المنطقة ولكن في شارع آخر، طفل يكبرنا سنا بقليل، له جسم ضخم لا يتناسب مع سنه. كان الكل يطلق عليه "الدكش". أصيب والده بمرض عقلي تسبب في وفاته في سن مبكرة.

لكي تتزوج والدته مرة ثانية، تركت الدكش لجدته الفقيرة كي تقوم بتربيته. وكانت الجدة تعيش فى غرفة بحوش تشبه عشش الفراخ. كانت تعول نفسها وحفيدها بالخدمة في البيوت والصدقات من أهل الإحسان.

في يوم من الأيام، شاهد الدكش شجيع السيما وهو يلبس القفاز. فطلب من جدته أن تشتري له قفازا. عندما رفضت هذا الطلب الغريب، أخذ يطاردها ويقذفها بالطوب. فتدخل أهل الخير ونصحوها أن ترحم نفسها وتشتري له قفازا. بعد ذلك، رأيت الدكش بجلبابه الممزق، حافي القدمين يجلس ويلبس القفاز الجديد ونحن في شهر أغسطس. يبتسم للمارة وهو يحيها بيديه.

كوّن الدكش فريقا للعب الكرة الشراب في الشارع الذي يسكن فيه. وحيث أنني كنت أحب اللعب جدا ولا أجد أطفالا آخرين ألعب معهم. كان الإنضمام إلى فريق الدكش أمرا حتميا.

لم تعترض والدتي على خروجي للعب في الشارع، نظرا لأن الشوارع في ذلك الوقت كانت آمنة. لا إختطاف ولا عربات تمر ولا مخدرات وحبوب هلوسة وخلافه. فقط الحشيش والأفيون وهي كانت مقصورة على طبقات معينة. ولا يتعاطاها إلا الكبار فقط. الشارع بكل سكانه وأطفاله كان بمثابة أسرة واحدة.

أعود من المدرسة، فألقي حقيبتي وكتبي وأجري للشارع للعب. ولا أعود للبيت إلا لتناول الغذاء أو العشاء والنوم. طبعا أطفال الشارع لم يكونوا كلهم ملائكة. وكانت الأفكار الشيطانية تتسلل لنا فلا تجد أية مقاومة. كنا مستعدين لفعل أي شئ، لمجرد إشباع غريزة حب الإستطلاع.

كنا مثلا نهاجم بيت الشيخ سرحان المدرس الذي يسكن في شارعنا بالبمب والصواريخ عندما تتواجد في شهر رمضان، ثم نلوذ بالفرار.

كان يجلس إثنان منا وبينهم حبل ممدود بعرض الشارع، وننتظر قدوم الصيد. عندما يأتي رجل أو شاب مسرعا ويمر أما الحبل، نقوم فجأة برفع الحبل إلى أعلي، فيختل توازن الرجل ويسقط على الأرض. وقبل أن يقوم، نكون قد اختفينا في لمح البصر.

كنا نأتي بمقطف قديم، ويجلس أحدنا فيه، ثم نغطيه بالخيش أو بالجرائد القديمة. ويقف أحدنا بجوار المقطف طالبا المساعدة على حمل المقطف من عابر سبيل. عندما ينحني المسكين لرفع المقطف، يهب أخونا القابع داخل المقطف صارخا في وجه الضحية. وقبل أن يفيق المجني عليه من المفاجأة ويرتد له وعيه، نكون في آخر الشارع.

كنا نذهب إلى صنابير المياة العمومية التي ينشدها السقاؤون لملء قربهم وأوانيهم. ثم نحفر حفرة عميقة ونغطيها بالقش والورق. فيأتي المسكين حاملا قربته، فيسقط فيها.

لم نكن نفعل ذلك للرغبة في إيذاء الناس. لكن كنا نبحث عن الإثارة. الطفل ملئ بالطاقة والنشاط. فأين يفرغ هذه الطاقة، إذا لم تكن هناك ملاعب رياضية ونوادي حكومية متوافرة له وقريبة منه؟

اللعب ينمي ذكاء الطفل. الطفل الشقي ذكي، وليس العكس صحيح. لأن الشقاوة واللعب هي التي تولد الذكاء. إنشاء الملاعب للأطفال في الحدائق العامة والمتنزهات وفي الأحياء والقري والنجوع، هي أفضل إستثمار يمكن أن تقوم به دولة ما. ولا يكلفها كثيرا.

كانت بمدينة فاقوس، سينما صيفية تعمل خلال الصيف فقط. وأخرى شتوية، تعمل في فصل الشتاء. كلاهما مملوكتان لعائلة واحدة أو عائلتين. السينما كانت تعمل حفلتين مسائيتين في اليوم. من 6 إلى 9 مساء، ومن 9 إلى 12 مساء. العرض عبارة عن فيلم مصري واحد تسبقه حلقتين أجنبيتين مدة كل منها 20 دقيقة.

السينما من الداخل صغيرة لا تسع لأكثر من مئة أو مئتين مشاهد على الأكثر. مكونة من صالة وبلكون وترسو. الترسو، أي الدرجة الثالثة، كان أمام الشاشة. وهو عبارة عن دككك خشبية بدون مساند. إذا غلبك النعاس فقد تجد نفسك على الأرض. تذكرة الترسو كانت ب22 مليم. العائلات كانت تذهب إلى البلكون أو الصالة.

أخطأت إدارة السينما في أحد المرات وأحضرت فيلما أجنبيا. الفيلم يأتي على بكرتين. ولأن عامل السينما المكلف بالعرض لا يعرف اللغة الإنجليزية، قام بعرض النصف الثاني من الفيلم قبل النصف الأول. ولم يتنبه للأمر أحد من المشاهدين سوى مدرس الفصل الذي أخبرنا عن هذه القصة.

أنا من عشاق فن السينما. أعتبرها أرقى الفنون كلها. لسبب بسيط، هو أنها تشمل كل الفنون تقريبا. الرواية والمسرح والتصوير والديكور والرقص والأوبرا والموسيقى...إلخ. السينما ليست تسلية فقط ومكان نهرب إليه من همومنا ومشاغلنا.

السينما منذ بدايتها، كان هدفها إلى جانب التسلية والإمتاع، وضع الحقيقة في صورة جديدة للمشاهد، تجعل من السهل عليه فهمها واستيعابها.

لماذا منظر الأمواج وهي ترتضم بالصخور، أو منظر القطار وهو يدخل المحطة، يجد قبولا من المشاهد ومتعة أكثر من الذهاب إلى الشاطئ أو إلى المحطة لرؤية الأمواج والقطار الحقيقي. السبب هو المتعة التي تصاحب رؤية الحقيقة وهي يعاد تمثيلها من زوايا أخرى.

عندما كبرنا وكبر الزمان، أصبحت نظرتنا للأفلام نظرة ناقدة. أنا الآن لا أشاهد الأفلام لكي أستمتع بها كما كان الأمر في طفولتي. ولكن أشاهدها لكي أنقدها وأبين عيوبها الفنية.

هل الممثلون قاموا بتأدية أدوارهم بأمانة؟ هل الإضاءة تخدم الموقف الدرامي؟ هل السيناريو يخدم أحداث القصة؟ هل الموسيقى تندمج مع أحداث الفيلم بسهولة، أم هي دخيلة عليه ونشاذ غير مستحب؟

هل حركة الكاميرا وعدستها من "زوم إن" و"زوم أوت" كانت موفقة؟ وهل المخرج له بصمته الواضحة وأسلوبه المميز، أم الفيلم عبارة عن قص ولزق كيفما اتفق مثل معظم أفلامنا الجديدة؟ ...إلخ

لكن هذه النظرة التحليلية في مشاهدة الأفلام، أفقدتني متعة المشاهدة التي كنت أستمتع بها وأنا طفل صغير. لا أنسى مشهد الشجيع وهو مسجون في الزنزانة والماء يتدفق ويرتفع رويدا رويدا

إلى أن يصل إلى مستوى رأسه. وهو يجاهد لرفع رأسه فوق سطح الماء.

ثم تنتهي الحلقة. وعلينا أن ننتظر حتى الأسبوع القادم لكي نري كيف يستطيع الشجيع الهرب من هذا المأزق المحكم. كنت أتناقش مع باقي الأطفال التي شاهدت الحلقة طوال الأسبوع ونبحث كل الإحتمالات الممكنة للنجاة. فلا نستطيع التوصل إلى الحل الصحيح. وكأن الشجيع حياته مهددة بالخطر فعلا.

عندما نعود في الأسبوع التالي، نجد أن الحرامية فجأة تذكروا أن الشجيع معه خريطة هامة، فقرروا الحصول عليها وقاموا بقفل الصنبور وحسر المياة. هكذا وبمنتهى البساطة ينجو الشجيع من هذا المأزق الفريد.

أبطال الحلقات كانوا دائما هم: الشجيع والحرامية وأخته وأخوه وابن عمه. القصة غير مهمة. فلم نكن نتابع الأحداث. ولكن كنا نتابع الحركة والضرب، "الآكشن".

لم تكن السينما بالنسبة لنا أفلاما فقط. إنما كانت حقائق. أنور وجدي وليلى مراد وبشارة وكيم، لم يكونوا بالنسبة لنا ممثلين. وإنما كانوا أفرادا من عائلاتنا. مثل العم والخال والجد والجدة. أذكر أنني ذهبت يوما أنظر خلف مبنى السينما لكي أشاهد الممثلين وهي تمثل، وتعجبت عندما لم أجد أحدا.

السينما بالنسبة للطبقات الفقيرة في ذلك الوقت، كانت متعتها الوحيدة، إلى جانب متعة إنجاب الأطفال بالنسبة للكبار، كما يقول أستاذنا الكبير يوسف إدريس في قصة أرخص ليالي. السينما هي عالم آخر من السحر والجمال والخيال بالنسبة للطفل.

الأفلام القديمة، أفلام الأبيض والأسود، ومنها أفلام أنور وجدي ومحمد فوزي وفريد الأطرش وعبد العزيز محمود ويوسف وهبي وحسين صدقي...إلخ، كانت تسلي وتستحوذ على كل إهتمام الطفل.

هذه الأفلام، كانت تغني حياة الطفل، وتنمي خياله وذكائه وتعترف بمتاعبه النفسية وإنفعالاته المكبوته، وتقترح حلولا لها. وهي في نفس الوقت، تتصل بجوانب شخصيته المختلفة وتنمي ثقته في نفسه وفي مستقبله.

هناك الكثير الذي يمكن أن يتعلمه الطفل من الأفلام القديمة، عن المشاكل الداخلية للإنسان والحلول الصحيحة لها. فهي أقرب الطرق للتخاطب مع الإنسان الغير متعلم. تحمل رسالة هامة للعقل الواعي والعقل الباطن على السواء. تخاطب براعم "الأنا" في نفوس أطفالنا وتساعدهم على النمو.

وهي أيضا، تخفف من ضغوط العقل الباطن، وتعالج مشاكل النرجسية وعقدة أوديب والغيرة بين الأخوات. وتوضح حقائق الحياة بما فيها من خير وشر وحياة وموت، وتؤكد مقولتي "الجريمة لا تفيد" و"الخير ينتصر دائما على الشر".

الطفل لا يفهم تفسيرا للحوادث والظواهر والإنفعالات التي يمر بها. فهو لا يفهم أن الناس تبكي لأنها حزينة، لكنها تبكي فقط. ولا يفهم أن تحطيمه للأشياء يكون بدافع الغضب. إنما يستجيب لدافع داخلي لا يعرف سببه.

التحدث إلى عقل الطفل، لا يكون بشرح الأسباب والدوافع. وإنما يكون عن طريق الصور والشخصيات التي توجد في الفيلم. فهي أقدر على مخاطبة عقله الباطن مباشرة.

الأطفال الصغار لا تفكر بالمنطق والأسباب كما نفكر نحن الكبار. إنما يأتي ذلك فيما بعد وبالتدريج في الكبر. الطفل قد يبتهج عندما نخبره أنه استطاع التفوق على الكبار أو على والديه مثلا في مجال معين. لكن هذا الإحساس يولد في نفس الطفل القلق. إذ يشعر بأن حمايته وأمنه عن طريق والديه أصبحا في خطر.

لكنه يستمتع بقدرة البطل في الفيلم على التغلب على الأهوال والصعاب والإنتصار على الأشرار، دون أن يتهدد شعوره بالأمن والرعاية. كما أن أحداث الفيلم، قد توحي إليه بأن العقل والحيلة، وليست القوة الغاشمة وحدها، كفيلان بالتغلب على مشاكل الحياة.

لقد نسينا سحر الأفلام البسيطة التي تنقل القيم الإنسانية العظيمة إلى نفوس أولادنا وشعوبنا الأمية مباشرة دون واسطة. حتي ينشأوا وهذه القيم جزء من حياتهم ومستقبلهم.

الفصل الخامس

مدينة فاقوس التي كنا نعيش فيها تقع في أطراف شرق الدلتا. تبعد عن مدينة الزقازيق، عاصمة محافظة الشرقية، مسافة 30 كيلومتر تقريبا. معظم سكانها من التجار والموظفين المغتربين. بها مدرسة ابتدائية وثانوية، تستوعب أعدادا كبيرة من الأولاد. بجوارها مدرسة أخرى للبنات.

شوارع المدينة والطرق المؤدية إليها، كلها ترابية غير مرصوفة. تقوم البلدية بكنسها ورشها بعربات الرش مرتين في اليوم، في الصباح ووقت العصر. الكناسون يلبسون الجلاليب ويحملون مقاطف ومقشات. كل منها عبارة عن يد خشبية طويلة تنتهي بقنو نخلة.

القنو هو مجموعة الأفرع الكثيرةِ التي تحمل البلح في النخلة. جاء في شعر امرؤ القيس وهو يصف شَعر حبيبته الأسود الفاحم الغزير: "وفرع يغشى المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل". وهذا قول لا يجرؤ اليوم أحد منا على استخدامه في الغزل. وإلا كانت النتيجة الضرب بالقنو.

رش الشوارع والطرقات، يمنع الأتربة من التطاير في الهواء والدخول إلى المنازل والمحلات. عربية الرش، عبارة عن خزان كبير محمول على عجلتين مثل عجلات العربات الكارو، يجره بغل. به فتحة علوية لملئه بالماء، وأنبوبتين خلفيتين في وضع أفقي، مثقوبتين للرش.

يجلس السائق أعلى الخزان ويتحكم في تدفق مياة الرش. في فصل الصيف، تجد الأطفال تجري خلف عربات الرش لترطب جسمها بالماء البارد. توجد في أماكن متفرقة من المدينة، حنفيات مياة ضخمة بخراطيم طويلة لتزويد عربات الرش بالمياة اللازمة.

أثناء ذهابي للمدرسة في الصباح الباكر، أرى أصحاب المحلات والقهاوي البلدي، بعد كنس ومسح محلاتهم، يقومون برش الماء أمامها أيضا. الشوارع كانت نظيفة، والقلوب والضمائر أيضا كانت نظيفة.

على اليمين، كنت أمر بدكان "الوزيري" للخردوات. أخوه الصغير "سعيد" كان معي في المدرسة واستشهد في حرب 1967م. أمامه، كان يوجد محل "الباشا" لبيع وكي الطرابيش.

صناعة الطرابيش كانت مزدهرة في ذلك الوقت، ثم صارت تحتضر بعد قيام الثورة. احد أولاد "الباشا" كان زميلا لي في المدرسة، ثم أصبح صيدليا فيما بعد. لولا مجانية التعليم الجامعي في عصر جمال عبد الناصر، لما كان لمثلي أو لمثل هؤلاء أي أمل في دخول الجامعة.

الطربوش كلمة فارسية من مقطعين تعني غطاء الرأس. الإسم بالإنجليزية "fez"، يعنى مدينة فاس في المغرب. لأن الطرابيش كانت تصنع في أول الأمر بمدينة فاس. ضباط الجيش في عصر محمد علي كانت تلبس الطرابيش. أول طربوش صنع في مصر كان عام 1825م.

الطربوش الأحمر، كان بالنسبة للمصريين رمزا وطنيا. شأنه شأن العلم الأخضر ذو الهلال والثلاثة نجوم. لكن في تركيا، قام كمال أتاتورك بإلغاء الطربوش والنقاب في يوم واحد. على أنهما رمزان للتخلف.

في عام 1952م، مع قيام الثورة، تم إلغاء الطربوش والألقاب، "الأفندي" و"البيه" و"الباشا". لا يباع الطربوش في مصر حاليا إلا في الأماكن السياحية وخان الخليلي. أما الألقاب فقد عادت ثانية ولكن بشكل غير رسمي.

أواصل السير إلى المدرسة، فأجد بعد مدة محل الخواجة كركور نيشان للأحذية. يليه محل الصباغ للخردوات. ثم محل بقالة يوناني كبير. بعد ذلك، ميدان فسيح، ثم السكة الحديد. يليها كوبري على ترعة صغيرة، ولوحة خشبية كبيرة للإعلانات تنبئ عن الفيلم المعروض هذا الإسبوع.

أمام لوحة الإعلانات في الجهة المقابلة، رجل صعيدي أسمر عجوز بشنب ضخم أبيض وطاقية وجلباب بلدي. يجلس في الشارع على الأرض، وأمامه مقطف به ثلاث خيارات مروبية وباذنجانة معطوبة وبرتقالة أو إثنين ضرب فيهما العفن. معه فردة شراب قديمة، يقوم ببلها بفمه وتلميع بضاعته حتي تروق للشارين.

أستمر في السير وسط الزحام. محلات كثيرة، بقالة وخردوات وصيدلية وفكهانية...الخ، على اليمين وعلى اليسار، إلى أن أصل للمدرسة.

عندما تمطر السماء، تتحول الشوارع إلى برك ومستنقعات. الأرض طينية لا تتشرب المياة بسهولة. أسير بحذر وبطء ومعي شنطة

المدرسة، كمن يسير على الحبل لحفظ توازنه. بين الفينة والأخرى، أجد قوالب طوب مرصوصة لمرور المشاة. وضعها فاعلي الخير في الأماكن الموحلة، أو حيث تتجمع المياة بغزارة.

عند العودة من المدرسة، أسلك طريقا مختلفا وأبتعد عن الزحام وسط البلد. أسير بجانب ترعة صغيرة على الشمال. على اليمين أجد فيلات متراصة بطول الترعة. لم أر فيها ساكن بإستشناء مرة واحدة.

رأيت في أحدها شابة في غاية الحسن والجمال والدلال. تقف في أحد البلكونات وتتحدث إلى رجل يقف في الحديقة. يبدو أن هذه الفيلات كانت مملوكة لأناس تعيش في القاهرة، وتأتي لهذه الفيلات للراحة والإستجمام في أوقات الفراغ والصيف.

في آخر هذه الفيلات وقبل الوصول إلى الترعة الكبيرة في المواجهة، يوجد منزل كبير لأحد الأثرياء. له أولاد كبار وأراضي وأطيان كثيرة. الرجل كان مريضا يعيش في هذا المنزل بمفرده. أحضر له أولاده سيدة أرملة متوسطة السن لخدمته ورعاية شؤونة من طبخ وغسل ملابس وتنظيف المنزل، إلخ.

السيدة كانت تعيش في منزل قديم أمام المنزل الذي نسكن فيه وسط المدينة. وكان الأهالي يطلقون عليها إسم "كشكاية"، نسبة لطبق الكشك المصنوع من الدقيق الأبيض واللبن. ربما بسبب بياضها وحمرة وجنتيها وقامتها الفارهة. يبدو أنها من أصل تركي، أو من سلالة المماليك التي حكمت مصر سابقا.

كان لها أولاد كبار. أحدهم كان يعمل في القاهرة، وآخر متزوج والثالث شاب والرابع طفل صغير يعيش مع أخيه الأكبر. ابنها الصغير عندما كان يأتي لزيارة والدته، كان يلعب معنا في الشارع.

أخذني أحد المرات وأدخلني معه منزل الثري، وكان يبحث وقتها عن والدته. المنزل عبارة عن بهو كبير تتفرع منه عدة غرف، وينتهي من الخلف بحديقة صغيرة مهملة.

في يوم من الأيام، تفقدت هذه السيدة ابنها الصغير فلم تجده. حينما مالت الشمس نحو المغيب، جن جنون السيدة، فأخذت تجري وتسأل في كل مكان. إلى أن وجدته يستحم في الترعة الكبيرة التي تسمى "المشروع".

بحثت عن ملابسه، فوجدتها على الشاطئ. لكي تعطيه درسا لا ينسى، أخذت ملابسه وعادت بها إلى منزلها وتركته عاريا على الشاطئ. لم يجد الإبن مكانا يأوى إليه وهو في هذا الوضع البائس سوى مصلية كانت بالقرب منه.

جاء شيخ كبير ليصلي، فوجد الصبي عاري في المصلية، وقبل أن يسأل عن حقيقة ما حدث، أخذت الظنون تلعب برأسه. فصرخ في الغلام وجرى وراءه وهو يقذفه بالطوب. الغلام يجري عاريا والشيخ يجري خلفه والناس تضحك ضحكا هستيريا. إلى أن عاد الغلام إلى منزله.

بعد هذه الحادثة بعدة شهور، في أحد أيام الصيف، سمعت هرج ومرج في الشارع. خرجت لكي أستطلع الأمر، فوجدت الناس تجري نحو الترعة الكبيرة. ماذا حدث؟ سمعت الناس تقول "غريق غريق".

حيث أنني لم أر غريقا من قبل، ذهبت لكي أشاهده. عندما وصلت إلى الترعة بالقرب من شونة بنك التسليف التي يعمل بها والدي، وجدت الناس تكتظ على شاطئي الترعة. كان وقت العصر والشمس بدأت تميل نحو المغيب، والنهر يفيض حتى أقصاه. النسيم يداعب سطحه اللامع، فيرتجف بأمواج دقيقة مخملية.

عندما اقتربت، وياالهول ما رأيت. وجدت السيدة أم الطفل الذي ألعب معه، جثة هامدة ملقاة على الشاطئ بعد إنتشالها من النهر. عارية منتفخة لونها وردي متآكل أطرافها. رائحة الموت تملأ المكان. الناس تبحث عن شئ أو جرائد لكي تلقيها فوقها. أحد أبنائها يهيل على رأسه التراب ويلطم وجهه كأنه المسؤول عما حدث لوالدته. الناس تحتضنه وتحاول منعه.

أصبت بصدمة كبيرة لرؤيتي هذا المنظر البشع. كانت هناك غصة في حلقي وفقدان كامل للشهية لعدة أيام. لا أستطيع النوم ليالي متوالية. لم أكن قد شاهت وشممت وعرفت شكل القتيل من قبل وفي مثل هذه الحالة.

كان الموت قبل ذلك بالنسبة لي مجرد حدث سينمائي يحدث مثل باقي أحداث الفيلم. لكن هذه المرة، ها أنا أراه حدثا حقيقيا أمامي. فيا لجلال ورهبة الموت.

الشائعات تقول بأن السيدة أخطأت، وغلطت غلطة عمرها، عندما قبلت الزواج من الثري العليل. أولاد الثري لم يقبلوا بالطبع أحدا يشاركهم الميراث، ويقاسمهم هذه الأطيان وحدائق المانجو ومئات الأفدنة. فضلا عن كونها من عامة الشعب فلا يجب أن تختلط الأجناس.

بالطبع قيد الحادث ضد مجهول. النصيحة وصلت بسرعة لأولادها لكي يلزموا الصمت. القوانين خيوط عنكبوت، يمزقها القوي ويتلعثم فيها الضعيف.

بعد منزل هذا الثري، وأنا في طريقي من المدرسة عائدا إلى البيت، أمر بكوبري صغير، ثم كوبري أكبر أمام السينما الصيفية. يليه مزلقان السكة الحديد، ثم كوبري ثالث. المدينة كان بها مالا يقل عن سبعة كباري نهرية.

على شاطئي الترع ترتص أشجار البونسيانا بزهورها الحمراء التي تتوقد وتلتهب تحت أشعة الشمس طوال فصل الصيف. السماء زرقاء صافية يشوبها قليل من الغمام الأبيض الناصع. مناظر خلابة تأخذ الألباب. لا تجدها في سويسرا ولا في أجمل بلاد أوروبا أو أمريكا. فماذا حدث لنا؟ ومن المسؤول عن اختفاء الجمال من حياتنا؟

كنت أمر في طريقي بفرقة المطافي. أجدهم يقومون بغسل خراطيمهم ونشرها في الشمس. ثم يقومون بتلميع آلاتهم الموسيقية النحاسية وتعليقها على الحائط. لقد كانت فرق المطافي في هذا

الزمن الجميل، تحترف العزف الموسيقي إلى جانب عملها الرسمي في إطفاء الحرائق.

هذا شئ منطقي، لأن الحرائق لا تحدث كل يوم. تؤجر فرقة المطافي بأسعار زهيدة لإحياء الأفراح والليالي الملاح. وكانت تقوم بعزف الموسيقى في أكشاك في الحدائق العامة، وتسير في المهرجانات في الأعياد والمناسبات الوطنية بملابسها الرسمية.

مررت برجل عجوز نحيف يلبس الجلباب والطاقية ويجلس على الرصيف أمام أحد المحلات. يقوم بخرط قطع خشبية وتحويلها إلى تحف فنية غاية في الجمال والرقة. يصنع منها أرجل كراسي أو عنق أرجيلة أو أجزاء من شبابيك الأرابسك.

كل أدواته عبارة عن قوس ووتر وأزميل. يضع الأزميل بين أصابع رجليه، ويقوم بربط الوتر حول القطعة الخشبية. ويحرك القوس مجيئة وذهابا فتدور قطعة الخشب مع حركة الوتر. وبيده الأخري يتحكم في الزاوية التي يقابل بها الأزميل القطعة الخشبية وهي تدور.

مهارة وقدرة خارقة على الإبداع. فقدناها عندما انفصلنا عن العمل الذي نقوم به. العمل أصبح لدينا عملية أكل عيش وفهلوة. المطلوب بذل أقل مجهود والحصول على أعلى أجر. لم يعد العمل وسيلة لتحقيق الذات والرقي بالنفس كما كان في الماضي.

الجسد يفنى، وتبقى أعمالنا. إذا غرست شجرة، فالشجرة تنمو وتثمر. ومن ثمارها يأكل الناس والطير وباقي المخلوقات. من زهورها ينتشر

العطر، ومن أوراقها يأتي الأكسوجين ليملأ صدورنا بالحياة. من بذورها تنمو شجرات وشجرات. عمل مثل غرس شجرة قد يبدو لنا أنه عمل بسيط، لكنه في الواقع عمل خالد لا ينتهي.

العمل بالنسبة لقدماء المصريين، كان حالة روحية من التعبد والتصوف والرهبنة. لا يعرفها إلا الفنان وكل من يحب عمله ويتفانى فيه. لذلك بنيت الأهرامات والمعابد والتماثيل الرائعة.

أما العمل اليوم، فهو مجرد وظيفة من الساعة كذا إلى الساعة كذا. لا وقت للتفكير والإبتكار . أرواحنا وعقولنا منفصلة عن العمل الذي نقوم به. أصبحنا متفرجين نشاهد أجسامنا وهي تعمل، لكن أرواحنا وعقولنا بعيدة. لذلك نجد أن المنتج هو أيضا صار جسدا بدون روح.

كانت حوائط بعض المباني في طريقي مكتوبا عليها شعارات باللونين الأحمر والأزرق لنصرة فلسطين. تشيد بأبطال مصر الذين تطوعوا للقتال في جانب الشعب الفلسطيني. أمثال البطل أحمد عبد العزيز والضبع الأسود، اللواء سيد طه.

البطل أحمد عبد العزيز، كان من كبار ضباط الجيش المصري. عندما رأى تلكؤ الحكام العرب في نصرة اخوانهم الفلسطينيين عام 1948م، استقال من الجيش المصري هو ومجموعة من رجاله. وذهبوا لمقاومة القوات الصهيونية. استشهد على أرض فلسطين في عملية طائشة.

بعد استشهاد أحمد عبد العزيز، كانت قرية عراق المنشية تخوض معاركا ضد العصابات الصهيونية، توسعت إلى الفالوجة. نسجت بعد

هذه المعارك هالات أسطورية على مقاتلين مصريين أمثال اللواء سيد طه، وهو صعيدي من أسوان. عرف عنه الصلابة والمشاعر العروبية الدافقة.

كان يلقب بضبع الفالوجا أو الضبع الأسود لسمرة بشرته النحاسية. الذي أطلق لقب الضبع الأسود على سيد طه، هو اسحق رابين. لأن طه تسبب في قتل الكثيرين من عصابات الصهاينة، وحافظ على قواته أثناء حصار الفالوجة الطويل.

أستمر في السير نحو منزلي، فيمر بي شيخ ضعيف النظر يتحسس طريقه بصعوبة بمساعة عكاز. كان له ابن شاب في غاية الدماثة والأخلاق. بعد حصوله على الشهادة الجامعية، ذهب لقضاء فترة التجنيد.

أثناء عودة الإبن لزيارة والده الشيخ، أغراه بعض الأصدقاء بالركوب فوق سطح القطار. الكباري العلوية التي يمر تحتها القطار تأتي على حين غفلة ودون سابق انذار. ويشاء القدر أن يقسو على هذا الشيخ المسكين دون رحمة. فيفجع في إبنه وسنده الوحيد، ويموت الإبن هذه الميتة البشعة. وتستمر بنا الحياة بحلوها ومرها.

الفصل السادس

كنا ثلاثة أطفال تتراوح أعمارنا بين العاشرة والحادية عشر. أنا وطفل ثان، أصبح محاميا فيما بعد، ثم عضوا في مجلس الشورى، ثم مجلس الشعب لعدة دورات متتالية، اسمه رفعت. الطفل الثالث اسمه حسين، لا أعلم عنه شيئا منذ الطفولة.

ونحن في طريقنا للمدرسة، قررنا الهرب للتحرر والإنطلاق إلى الحقول، بحجة الإستذكار في الهواء الطلق. لقد اقترب العام الدراسي من نهايته، ولم تعد المدرسة جادة في تسجيل مرات الغياب، والمدرسون يقومون بالمراجة فقط.

بالرغم من أننا لم نستذكر حرفا واحدا أثناء هذه المغامرة. إلا أنني لست نادما على هذا الفعل الطائش. لأنه ترك في نفسي أجمل الذكريات التي يمكن أن يحملها إنسان.

بدأنا بالطريق الزراعي أول البلد. السكة الحديد على اليسار. الحقول الخضر المنبسطة على مدد الشوف على اليمين. الحديث يدور بيننا عن أي شئ سوى المواد الدراسية. الشمس بدأت تعلو وتبتعد عن الأفق. الهواء يحمل الدفء والعبير. رائحة الريف تعبق المكان. الهدوء والصمت الذي يضخمه طنين ذبابة هنا أو نداء عصفور هناك.

الطريق زراعي ترابي، شق بين الحقول. لا تمر عليه في ذلك الوقت عربات كثيرة. تزينه الأشجار من الجانبين. على البعد تري طيور

أبوقردان بريشه الأبيض الناصع ومنقاره وأرجله الطويلة البرتقالية. يرفع ويخفض رأسه وهو منشغل بتناول وجبة الصباح.

الشمس ترسل أشعتها الساطعة. النسيم يلطف أبداننا. الكلام والضحك البرئ يشغلنا عن أي شئ آخر. أرى الآن جمال هذه الطيور البيضاء وسط الحقول الخضراء بعين الذاكرة، ممزوجة بتجارب السنين. لكن الأطفال، في هذه السن المبكرة، لا تنبهر بجمال وسحر وهدوء ونقاء الريف. هذا يأتي فيما بعد وبالتدريج.

وجدنا على الطريق، عاملين من عمال التراحيل، يقومون بتعبيد الطريق ورشه بالماء. جلسا للراحة على حجرين مستويين. بادرنا أحدهم بالحديث والسؤال عن سبب تواجدنا في هذا المكان في هذا الوقت بالذات. ثم تطرق الحديث إلى دروس المدرسة والحساب. بادرنا أحدهم في تحد واضح بمسألة قسمة مطولة ثم بأحد الألغاز:
"ما هي الحاجة التي كل ما آخذ منها، تكبر"

أجبته على الفور، هي الحفرة. ارتسمت على وجه الرجل علامة إعجاب واستغراب ظلت تلازمه حتي غادرنا المكان. أنا لا أعرف كيف أتت الإجابة إلى ذهني بهذه السرعة. لقد وهبني الله عقلا تحليليا، ولا أدري هل هذه نعمة أم نقمة. لأنها سببت لي الكثير من المتاعب فيما بعد، سوف أتحدث عنها في حينها.

لا أتقبل أي شئ أو أية معلومة إلا إذا كانت موزونة ومعقولة. أعجب ممن يستطيع أن يصدق أي شئ بسهولة ويسر، دون بذل أي جهد في

فحص هذا الشئ منطقيا. ولا أعرف التصديق المبني على التمني، أو الرغبة في فائدة أو الهرب من ألم.

عندما تسير بين الحقول، تكون جزءا من الطبيعة. لكن عندما تنظر من نافذة القطار أو السيارة أو تشاهدة السينما أو التليفزيون أو شاشات الكمبيوتر، تكون أنت شئ، وما تشاهده شئ آخر. أنت ساكن والمناظر تمر أمامك كلوحات متتابعة في براويز مستطيلة.

لكن، عندما تكون في أحضان الطبيعة، تكون أنت جزءا منها. مثل أرضها وحقولها وأشجارها وطيورها ومياهها وسمائها. لم تعد أنت مشاهدا أو مراقبا من الخارج. إنما أنت داخل المشهد نفسه.

خطواتك على الأرض الترابية حقيقية. وضع يدك على جزع شجرة أو مسك عود حطب أو حصاة ملقاة على الأرض حقيقي. تجربة روحية لا تتمحي من عقولنا الواعية بسرعة وبسهولة.

نري الريف مرات ومرات. لكن في كل مرة، بل في كل لحظة، نراه مختلفا فريدا عن اللحظة السابقة أو اللحظة اللاحقة. حسب زاوية ميل الشمس على الأفق. وحسب كثافة الغمام وفصول السنة وعمر الزرع ونوعه. وحسب درجة هبوب الريح أو هطول الأمطار. وحسب موقعك واتجاهك وطولك وعمرك وحالتك ومزاجك النفسي وثقافتك وقدرتك الذهنية.

الأخضر الفضي الجميل لحقول الفول أو الكرنب، يختلف عن الأخضر الزاهي لحقول البرسيم. سنابل القمح الخضراء، تتحول ببطء إلى

سنابل ذهبية تبرق وتلمع تحت أشعة الشمس الساطعة وقت الظهيرة. تصطبغ باللون الأرجواني وقت الأصيل، ثم تتحول إلى اللون الرمادي عند الغروب.

أوراق الشجر ترتب نفسها وتتسطح وتتجاور في مواجهة الشمس، لتستقبل أشعتها الذهبية بالأحضان. إنعكاسات الضوء في قنوات الري وقت الظهيرة، تضوي مثل فصوص الماس والفضة على سطح المياة الجارية.

الزهور البرية ونبات ذيل القط تصطف بجانب قنوات الري. تشبه براويز لوحات فنية جميلة غاية في الروعة. هبات النسيم المعطر بزهور البرتقال في نهاية الصيف وبداية الخريف، لها نشوة وأريج ليس له مثيل.

تجمعات طائر أبو قردان بسيقانه الطويلة البرتقالية المائلة للحمرة وريشه الأبيض الناصع، وطيور أبوفصادة والهدهد، تراها هنا وهناك، واقفة على الأرض أو طائرة في السماء. الريف كائن حي، في تغير مستمر مثل النهر. جاء في وصف عمرو بن العاص لمصر:
"درة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء، إذا هي زبرجدة خضراء. فتعالى اللّٰه الفعال لما يشاء".

عندما نكبر، نكون في عجلة من أمرنا. لا وقت للنظر والتأمل والتحدث مع الآخرين. لذلك يمر بنا الوقت بسرعة. ونتعجب أين ذهب عمرنا وهرب منا.

كنا نترك الطريق بين الفينة والأخرى للسير على شريط السكة الحديد بين القضبان. ثم نتسابق بالمشي فوق القضبان نفسها، محاولين حفظ توازن أجسامنا. نرى نصف كلب ميت دهمه القطار على الشريط. عاش كلب ومات ميتة الكلاب في بلادنا. نباتات التين الشوكي تظهر على اليمين واليسار.

قضبان السكة الحديد، نراهما يقتربان من بعضهما كلما امتدا، بالرغم من توازيهما، حتي يتلاقيا في الأفق البعيد. في الواقع لا تقارب هناك ولا تلاقي. هذا بسبب خداع البصر فقط لا غير. فهل هذا خداع، أم تحوير للحقيقة وإظهارها في صورة مختلفة، لكي تساعدنا علي تحديد المسافات؟

لولا هذا الخداع البصري، لما تمكن أجدادنا، وهم يجرون عرايا في الاحراش، من صيد الفريسة. رؤية الحيوان البعيد صغير ،والقريب كبير، تساعدنا في تحديد المسافات. تري كم من الحقائق قمنا بطمسها وتغييرها حتي نستطيع مواصلة هذه الحياة؟

مررنا بقرية صغيرة اسمها البيروم على يمين الطريق. هي بلد أمير القصة العربية يوسف إدريس(1927-1991م)، المفكر والأديب المصري الكبير. الذي قدم للأدب العربي عشرين مجموعة قصصية وخمس روايات وعشر مسرحيات، وترجمت أعماله إلى 24 لغة عالمية.

هو من أشهر الأطباء الذين تركوا مهنة الطب وتفرغوا للأدب. أمثال مصطفى محمود وعلاء الأسواني. ربما يكون العامل المشترك بين الطب والأدب، هو العمل لتخفيف آلام الناس.

تركنا قرية البيروم وسرنا في طريقنا عدة كيلومترات أخرى حتى وصلنا لقرية اسمها الفدادنة. الشمس في السمت والظلال على الأرض تكاد تختفي، والهواء ساكن وحار. لكن بسبب طول المسافة التي مشيناها، عضنا الجوع والعطش بشدة. لم يكن معنا نحن الثلاثة، سوي ثلاثة تعريفة، لا تكفي للعودة بالقطار أو الأوتوبيس.

وجدنا في أحد الحقول، بصل مزروع. اقتلعنا عدة بصلات من جزورها للأكل. ولكن البصل الأخضر لا يشبع ولا يروي ظمأ. عندئذ، قررنا العودة. لكن، ماذا نفعل بالنسبة للجوع والعطش؟ وهنا، اقترح زميلنا رفعت بأن نقوم بإستجداء الطعام.

هل أنت مجنون؟ نشحت مثل الشحاتين؟ فقال ببساطة: أيوه. وأنتم مالكم. أنا الذي سأقوم بالشحاتة. بعد التردد والخوف من أن يقوم الأهالي بتسليمنا للبوليس، وتحت قرص الجوع، وافقنا على شرط أن يقوم صديقنا رفعت بالمهمة.

دخلنا القرية وظللنا نمر بحواريها ومنازلها المبنية من الطمي والمعروشة بالحطب. اتفقنا على أن نختار بيتا معزولا ليس له جيران، تبدو عليه علامات الفقر. بحجة أن الفقراء هم أهل الكرم.

وجدنا أحد البيوت في نهاية القرية يواجه الحقول الخضراء. أمامه بجوار الباب مصطبة طينية مفروشة بالحصر. "أيوه، البيت ده"، صرخ أحدنا. أخذت حسين وتركنا رفعت صاحب الفكرة يقترب من المنزل. أختبأنا

خلف جدار بعيد نرقبه ونحن نكاد نموت من الضحك وسخافة الفكرة، متوقعين علقة ساخنة أو ضرب بالشلاليت.

طرق رفعت الباب بشجاعة يحسد عليها. فتحت له فلاحة عجوز. أخذ يكلمها ونحن من بعيد نرقبه ولا ندري ما يدور بينهما. بعد ذلك دخلت السيدة بيتها وتركت صديقنا واقفا بالباب. بعد فترة إنتظار وقلق، أشار لنا صديقنا بيده بالإقتراب.

ماذا حدث يا رفعت؟ قال إجلسوا هنا على الحصيرة فوق المصطبة، السيدة دخلت لتحضر لنا الأكل. ماذا قلت لها؟ قال ببساطة، قلت لها هل يوجد هنا بقال أشتري منه أكل؟

فأجابت السيدة، لا يا ابني لا توجد محلات أكل هنا. ثم بادرته: أنت عاوز تاكل؟ فقال لها: "أيوه، أصلي جوعان". فقالت له، أقعد هنا وأنا أجيبلك أكل. فقال لها: لكن معي اثنين من أصحابي. فقالت وماله. هاتهم معاك وأهلا بيهم، ثم دخلت المنزل.

ظللنا ننتظر، ولا حس ولا خبر. ونحن نقوم بالتهكم والسخرية من صاحب الفكرة. نحن نقول: لا بد أن السيدة ذهبت لكي تستنجد بأقاربها للقبض علينا وتسليمنا للبوليس. وهو يقول: انتظروا إن اللّه مع الصابرين.

الوقت يمر ببطء شديد وعيوننا على الباب في انتظار السيدة، ولكن السيدة لا تظهر. بعد فترة بدت لنا طويلة جدا، جاءت السيدة العجوز بصينية كبيرة نحاسية، مليئة بالعديد من أنواع الأكل.

طبق بيض كبير مقلي في السمن. وبيض مسلوق وجبنة بيضاء فلاحي. وطبق عسل نحل. وعسل أسود. وطبق قشدة وعيش فلاحي محمص. وبصل أخضر وجبنة قديمة ومخلل. ثم أحضرت قلة ماء باردة عليها غطاء نحاسي، وتركتنا وهي تقول "بالهنا".

هجمنا على الأكل مثل المجانين. كنا نشرب ونأكل بدون مضغ. لم أذق في حياتي أشهى ولا أطعم من هذا الغذاء الآتي إلينا من السماء. لابد أن هذه السيدة هي من الملائكة التي تتحدث عنها الكتب السماوية. كان يكفيها أن تعطينا قطعة خبز وجبن. وسنكون من الشاكرين. لكن أن تحضر لأطفال لا تعرفهم كل ما لديها من طعام، فهذا لم أسمع عنه في حياتي قط.

إنتظرنا أن تظهر السيدة مرة ثانية لكي نشكرها، فلم تظهر. أخذنا نطرق الباب عدة مرات فلم تجب. غادرنا المكان عائدين في نفس الطريق إلى منازلنا. هذه هي المرأة المصرية الأصيلة، وهذا هو الزمن الجميل الذي فقدناه وليته يعود.

الفصل السابع

عندما كنت أترك منزلنا وأنا طفل صغير، للذهاب لزيارة والدي في مكان عمله بشونة بنك التسليف الزراعي بمدينة فاقوس، كنت أرى المسافة طويلة والبيوت والمحلات كبيرة مرتفعة والناس طويلة كالعمالقة. كل شئ كان ضخما في الحجم حتى الزمن كان أطول وابطأ.

لاحظت ذلك عندما ذهبت منذ عامين لزيارة هذه الأماكن بدافع الحنين للماضي. لدهشتي الشديدة، وجدت أن كل شئ، كما نقول بالبلدي، مسخوط. الشوارع التي كانت واسعة أصبحت ضيقة. المسافات الطويلة صارت قصيرة. المباني العالية باتت منخفضة. الناس تحولوا إلى أقزام بعد أن كانوا عمالقة. الزمن أيضا قصر واصبح يمر بسرعة شديدة كلما تقدم بنا العمر.

أثناء ذهابي أو عودتي لزيارة الوالد، أقوم بتسلية نفسي بالفرجة على كل شئ أمر به. هذه طوبة أقوم بركلها برجلي لكي أشعر بوجودي. هذا حائط خشن أقوم بتمرير اصبعي على سطحه لمعرفة مقدار خشونته وملمسه. هذه يافطة لمحل مكتوبة بالخط الرقعة، وأخرى مكتوبة بالخط النسخ. ثالثة مكتوبة أي كلام بخط ردئ.

هذه معصرة لعصر السمسم. يُربط فيها رجل مكان البغل لإدارة حجر المعصرة. أمام بابها منطقة غامقة اللون بسبب اختلاط الزيت بتراب الشارع. ابن صاحب المعصرة كان معنا في المدرسة.

قام صاحب المعصرة بشراء مطحن قريب من منزلنا. المطحن مبني على مساحة لا تقل عن الفدان، كان ثمن الشراء ألفين جنيه في ذلك الوقت.

كان هناك شاب أبيض أحمر الوجنتين زائد الوزن في العشرينات، يلبس الجلباب الأبيض المكوي. يضع في أصابعه الخواتم الذهب ويقوم بتصفيف شعره ودهنه بالفازلين. لا أعلم علاقة هذا الشاب بالماكينة، ربما كان يمت بصلة القرابة لصاحبها.

في يوم من الأيام ذهب هذا الشاب إلى الغرفة التي بها ماكينة المطحن. ماكينة المطحن تعمل بالسولار وتنقل الحركة عبر سيور طويلة إلى أماكن الطحن. لسوء حظ هذا الشاب، تعلق طرف جلبابه بأحد السيور.

جذبته الماكينة إليها بشدة. أخذ يقاوم ولكن دون جدوى. وأخيرا، تغلبت الماكينة على الإنسان، وعصرته عصرا، وهو يصرخ بأعلى صوته. لكن صوت الماكينة كان عاليا فلم يسمعه أحد سوى طفل صغير لم يقدر على مساعدته. مشاهد الرعب ليست مقصورة على أفلام هتشكوك فقط.

أحد محلات المانيفاتورة التي أمر بها، كان يملكه رجل له أربع بنات وولد واحد اسمه رشاد. كان الرجل سعيدا بإبنه رشاد هذا إلى درجة الهوس. إذا ذهبت لشراء قطعة قماش، يبادرك بالتحدث عن ابنه الشاب الذي سوف يخلفه في إدارة المحل. ثم يقول لك والفرحة

ترتسم على وجهه، أنا غيرت إسم المحل بإسم رشاد، وآخذه معي للتعرف على تجار الجملة،...إلخ.

طبعا الأمور لا تسير كما نحب ونهوى. لكن لها قوانينها الخاصة التي لا تسير في اتجاه الخير دائما. يسميها هيجل "رعب التاريخ"، حيث تقيد الضحايا من البشر، وتقتل ظلما بدم بارد كقرابين في كثير من الأحيان.

في يوم زفاف أخت رشاد هذا، ابن صاحب الدكان. نصب السرادق وجاءت الفرقة الموسيقية والمطربون والراقصات والمدعوون والمأذون والشهود، وذبحت الذبائح وفرق الشربات. بدأت طلقات الأعيرة النارية تسمع من حين إلى حين.

في هذا الجو البهيج، جاء رجل غشيم لم يستخدم البندقية من قبل، وأصر على أن يجامل. طبعا الواحد منا لازم يجامل في الظروف اللي زي دي. صوب البندقية إلى أعلا دون أن يعرف أن قوانين الميكانيكا تقول: "لكل فعل رد فعل، مساو له في المقدار ومضاد له في الإتجاه". قام الغشيم بالضغط على الزناد دون أن يمسك بالبندقية جيدا. وإذا بالبندقية تدور في يده وتأتي إلى صدر رشاد وفي القلب بالتحديد. طبعا الباقي لا يحتاج إلى وصف.

مررت بالدكان بعد هذا الحاث الأليم مباشرة، فكان مغلقا. وظل مغلقا لفترة طويلة. عندما فتح الدكان، لم تعد الأمور إلى سابق عهدها.

اختفت الفرحة والإبتسامة من الشارع كله. كان يدير الدكان أحد العمال في غياب الأب. حينما يظهر الأب المكلوم، كانت تبدو عليه علامات

الإحباط الكامل واليأس القاتم. يتعجل الرحيل للحاق بإبنه وولده الوحيد.

بجوار محل المانيفاتورة، أمر بمحل ترزي افرنجي. يملكه الأسطى عبد الفتاح. الأسطي عبد الفتاح ترزي ما في منه. إيديه تتلف في حرير كما يقول المثل الشعبي. لكن فيه عيب واحد. المواعيد. يعطيك ميعاد بعد أسبوع. تذهب لإستلام الملابس في الميعاد فيحلف لك بالطلاق أنها جاهزة على تركيب الزراير، وفي الحقيقة، هو لم يلمس قطعة القماش قط.

ذهب عبد الفتاح هذا مع أخيه الفلاح وصديق ثالث إلى الغيط بالليل لشرب الحشيش. طبعا الغيطان والمراكب أحسن أماكن لشرب الحشيش لأنها بعيدة عن اعين البوليس. جلسوا في عشة في الغيط وأوقدوا الفحم في الدفاية الفخارية أو "الشالية" كما نسميها في الشرقية كعادتهم ليلة الجمعة من كل أسبوع. أخذوا يتبادلون شفط الدخان من غابة الجوزة، واخراج الدخان من المناخير، بعد وضع قطعة الحشيش (التعميرة) فوق فحم الجوزة.

سكون الليل في الغيط لا يشقه سوي نقيق الضفادع وصرير الهوام. الهواء معتدل وعطر زهور البرتقال يهب مع النسيم بين الفينة والأخرى. عبد الفتاح الترزي ورفاقه مختفين في العشة بعيدا عن الأعين وملتحفين بجنح الظلام. السماء تتلألأ بالنجوم في غياب القمر. لا تظهر سوى أضواء خافته من المنازل الريفية في الأفق من بعيد.

فجأة سمعوا صرخة مدوية شقت سكون الليل. "أنا في عرضك يا عم الجلشاني". ثم صمت مطبق كصمت القبور. طبعا أصحابنا الثلاثة ماتوا في جلدهم من الخوف والرعب. أطفأوا الفحم وتجمدوا في مكانهم حتي الصباح.

بعد ثلاثة أيام، وجد الأهالي جثة غريق في الترعة أوقفها الهويس. ذهبت وأنا طفل مع مئات الأطفال لنشاهد الجثة. الرجال بعصي طويلة يحاولون دفع الجثة جانبا حتي يتمكنوا من جذبها واخراجها من الماء. رائحة العفن والغرق تملأ المكان.

الجلشاني رجل متزوج من سيدة تمتلك أرضا زراعية. له ابن كان يعمل مع والدي كمساعد في الشونة. في أحد الليالي، كان الجلشاني يسهر في بيته مع أصحابه لشرب الحشيش. وكانت مجموعة من الأطفال تلعب كعادتها تحت عمود النور القريب من بيت الجلشاني.

خرج الجلشاني غاضبا لطرد الأطفال وشتمهم لكي يلعبوا بعيدا عن داره، لأنه لا يريد شيئا يعكر مزاجه في هذه اللحظة. لكن الأطفال أطفال. بعد فترة، عادوا للعب مرة أخرى تحت عمود النور نفسه ولم يعبأوا بشتيمة الجلشاني لهم.

"امشوا يا ولاد الكلب والله لأموتكم كلكم". فقام طفل بالرد عليه: "أنت اللي ابن كلب". جرى الجلشاني خلف الطفل ومسكه وضربه، ثم أقسم بالطلاق ليذبحنه بالسكين.

بالطبع شرب الحشيش له دخل كبير في اللي حصل. الرجل لم يكن في وعيه. لكن هناك مشكلة. لقد أقسم بالطلاق، فكيف يبر بهذا القسم دون إيذاء الطفل؟

تدخل أهل الخير لإيجاد حل لهذه المشكلة الوعرة. جاء إقتراح يقول، نأتي بالطفل ويمسك الجلشاني السكين بالمقلوب. ثم يمرر السكين على رقبة الطفل. في هذه الحالة يكون قد بر بقسمه ولم يأذ الطفل. وصافي يا لبن، ويا دار ما دخلك شر. ويصبح الكل أحبابا من جديد.

من يستطيع أن يرفض اقتراحا معقولا مثل هذا؟ في الحال تمت الموافقة. وتكون مجلس صلح من أصدقاء والد الطفل وأصدقاء الجلشاني. وجئ بالطفل والسكين. ثم مرت الجوزة بالحشيش كتحية واجبة في مثل هذه المناسبات. دور ثاني وثالث ورابع. الآن حان وقت تنفيذ التمثيلية حتى يبر الجلشاني بقسمه.

جاءوا بالطفل أمام الجلشاني. وأفهموا الطفل أن هذه تمثيلية لا تستدعي الخوف أو القلق. جلس الطفل على ركبتيه ومال برأسه ومد رقبته إلى الأمام. مسك الجلشان السكين. وبسرعة وأمام ذهول الحاضرين، قلب السكين، وبنصلها الحاد قام بذبح الطفل أمام والده وكل الموجودين.

تم القبض على الجلشاني. وباع كل أملاكه وكل أملاك زوجته للصرف على هذه القضية. حكمت المحكمة في النهاية عليه بالسجن سبع سنوات مع الشغل. سبب هذا الحكم المخفف، هو أنه كان تحت تأثير المخدرات أثناء إرتكابه هذا الفعل الشنيع.

خرج الجلشاني من السجن لا يملك شروي نقير. لم يجد سوى الإتجار بالأفيون والحشيش كوسيلة لكسب العيش. كان يتعامل مع تجار خارج المدينة، يأتون لزيارته من حين لآخر لتسليم البضاعة واستلام النقود.

جاء شاب يبدو أنه جديد في الكار لكي يتعامل مع الجلشاني. بعد أن سلم الجلشاني البضاعة، أخبره الجلشاني أن الفلوس سوف تكون جاهزة في الأسبوع المقبل. عندما عاد الشاب، وبعد أن تأكد الجلشاني من أن الشاب يعمل بمفرده وليس له سند أو معين، أخبره أن المبلغ مدفون في الغيط في باطن الأرض خوفا من هجمات البوليس.

أخذ الجلشاني الشاب وذهب به إلى الغيط. وعلى حين غفلة، قام بذبحه وإلقاء جثة في الترعة. هذا هو الشاب الذي صرخ صرخته الأخيرة: "أنا في عرضك يا عم الجلشاني".

لقد رأيت الجلشاني مرارا. كان يسكن في شارع قاطع لشارعنا يبعد عنا مئات الأمتار. جاء مرة يشتكي ابنه لوالدي بصفته رئيسه في العمل. الرجل كان نحيفا قصيرا. يلبس الجلباب البلدي والبالطو والطاقية. في الخمسينات من العمر. وجهه لايعرف الإبتسامة أو أي نوع من الإنفعالات. يقول إبنه عنه أنه أب مثالي وزوج مثالي. فهل هذا ممكن؟

بعد مقتل الشاب في الغيط، لم يثبت على الجلشاني أي شئ. لكن كل البلد علمت بالقصة. فزادت هيبته وخشيه الجميع. وبدأت تستخدمه العائلات الإقطاعية الكبيرة في مسائل الطار والإنتخابات والعمليات القذرة.

كانت مدينة فاقوس في الأربعينات بها عائلات في غاية الثراء والنفوذ. وكانت تتنافس للحصول على العمودية ودخول البرلمان. أحد أطفال هذه العائلات كان معي في الفصل اسمه علاء.

في يوم زفاف أم هذا الطفل على أبيه، كانت هدية الجد عبارة عن 200 فدان وعربية بكار بمفاتيح ذهب. هذا يعطينا فكرة عن مدي ثراء هؤلاء الناس.

كانت أمه تسير للتريض وقت الغسق بفستانها الأبيض المرصع بالجواهر وأمامها خفيران وخلفها خفيران يحملان البنادق. هذا ما رأيته بنفسي. وكان العروسان يسكنان في قصر منيف. محاط بأشجار الزينة المرصعة بالأضواء التي تقاد بالليل. القصر ملحق به حدائق المانجو والبرتقال الكبيرة والمصورة بالأسوار العالية.

ابنهم الصغير كان يحضر إلى المدرسة مع غفير للحراسة وخادم خصوصي يحمل له الحقيبة الجلد. في أول يوم دراسي له، جاء أحد المدرسين ودخل الفصل مناديا بإسمه. وعندما وجده يجلس في الصف الثاني مثل باقي الطلبة، نظر المدرس شذرا إلى أحد تلاميذ الصف الأول في الوسط، وصرخ في التلميذ: "قوم يا ابن الكلب أقعد ورا. تعال يا علاء أقعد هنا". ثم نظر إلى الطفل الذي يجلس بجواره، وتفحصه مليا. عندما وجد أن شكله لا يعجبه، طلب منه هو الآخر أن يجد مكانا خلفيا. وقام بإختيار أنظف وأشيك طفل لكي يجلس بجوار علاء ابن الأكابر.

لم أشعر في حياتي بأن الناس طبقات إلا في ذلك اليوم. كان باقي الطلبة تلبس نفس اللبس. سراويل متشابهة وأحذية مكعوبة أو صنادل مقطوعة بدون أبزيم، لم تر الورنيش في حياتها.

بعض البنطلونات بحمالات منه فيه، أي من نفس قماش البنطلون. وبعضها بدون حمالة أو حزام. القمصان غير مكوية والبلوفرات إن وجدت مصنوعة باليد بطريقة رديئة من شعر الماعز. الشعر مقصوص وبعضنا يترك مربعا في وسط الرأس للتزين.

ناهيك عن العماص في العيون والدمامل في الوجوه والجروح والخرابيش في البشرة والأرجل، من لعب الكرة في الشارع. الزكام والبربرة في بعض الأحيان. لكن علاء مختلف.

الشكل مثل الملك فاروق وهو صغير. يلبس بدلة كاملة مكوية وحذاء لامع وقميص أبيض ناصع برباطة عنق. الشعر مفرود مثل شعر الخوجات، طويل ممشط مفروق من الجنب ومدهون بالفازلين. والشنطة جلد فاخر والقلم باركر 51 أو شئ من هذا القبيل. أطفال شكلها يفرح ويجبرك على الإحترام.

يدخل مدرس في أول حصة قائلا: "فين علاء؟ كيف حالك يا علاء؟ عامل إيه يا علاء؟". أما الباقي، فأقعد يا ابن الكلب. واسكت يا ابن الكلب. عندما يقوم المدرس بالشرح، لا يشرح إلا لعلاء. وعندما يسأل، لا يسأل إلا علاء. كأن الفصل لا يوجد به أحد سوى علاء هذا.

طبعا هذا لم يكن يشكل أي مشاكل نفسية لنا ونحن صغار. لأننا كنا نشعر أن هؤلاء لا ينتمون إلى جنس الشعب المصري. أولا، كان عددهم قليل جدا. ثانيا، كانوا يسكنون بعيدا عنا. لذلك، الضغوط الإجتماعية لم تكن موجودة.

أما باقي الشعب، فكان يسكن في بيوت متشابهة. مفروشة بنفس الأثاث. نلبس ملابس متشابهة، ونأكل نفس الأكل، ونأخذ نفس المصروف. قرش تعريفة في اليوم أو مافيش. عندما كنت أذهب للإستذكار مع طفل آخر، كان مسكنه وفرش بيته لا يختلف عن مسكننا بالمرة. هم لا يملكون سيارة، ونحن أيضا لا نملك سيارة. هم يمتلكون راديو فيليبس قديم، ونحن كذلك. السرير بتاعهم نحاسي عليه ناموسية، ونحن كذلك.

لذلك لم يكن هناك حقدا طبقيا داخل الشارع الواحد أو الأسرة الواحدة. بعكس الموجود حاليا. فإنك تجد بسبب تفاوت الدخل وفلوس البترول، هذا الحقد الطبقي داخل الأسرة الواحدة. هذا يعيش عيشة الملوك، وأخوه يموت من الجوع أو يكاد يجد قوت يومه.

أحد هؤلاء الأكابر، كان عمدة منطقة كبيرة من المدينة. وصار يعمل بالسياسة. قصره المنيف يشغي بالحركة مثل خلية النحل. الوقت وقت انتخابات. وهو يقوم بترشيح نفسه في كل دورة للبرلمان.

كان من عادة هؤلاء المرشحين أن يقوموا بدس العيون والبصاصين وسط الخصوم لمعرفة خطط المنافسين والأعداء. كانت كل الطرق القانونية وغير القانونية تستخدم كوسيلة للفوز في الإنتخابات. أسهلها

القتل والخطف. الصراع هنا صراع من أجل القوة والسلطة بعد أن تأمنت الثروة. إذا اقترنت الثروة بالسلطة، فحدث ولا حرج.

جاءت الأخبار بأن أحد الخفر كان يتسلل إلى موقع الخصوم من حين لآخر. بعد مراقبته والتأكد من صحة هذه المعلومة، تمت مساءلته. أنكر في بادئ الأمر. لكن مع ضغط الإستجواب والأسئلة والشهود، اضطر إلى الإعتراف. ووضح أن هناك شيئا يدبر في الخفاء.

كانت العائلة المنافسة تنوي خوض الإنتخابات والنجاح فيها بأي ثمن. فقررت التخلص من منافسها القوي الشرس بطل قصتنا. كانت الخطة، قيام الجلشاني والغفير بقتل الثري والغدر به على حين غفلة نظير مبلغ كبير من المال. تم الإتفاق، وتسلم الجلشاني مقدم الأتعاب (العربون) ووضعه في جيب البالطو الداخلي.

الثري بطل قصتنا كان له أعداء كثر. وكان من الممكن أن يهدر دمه بين القبائل دون معرفة القاتل إذا نجحت الخطة. بالطبع لن يشك أحد في الغفير أو الجلشاني، لأنهما كانا من رجاله الأوفياء.

قيد الغفير من يديه ورجليه وألقي في مخزن للغلال حتي ينظر في أمره. بعد ذلك، تم استدعاء الجلشاني على عجل بجحة تنفيذ مهمة من المهام القذرة لصالح الثري.

جاء الجلشاني بسرعة. فوجد نفسه داخل مجلس من الرجال أشبه بهيئة محلفين، يجلس وسطهم الثري. الغضب بادي علي وجهه، يتطاير

الشرر من عينيه. بهت الجلشاني وتوجس خيفة، لكنه ظل رابض الجأش، لا تبدو على وجهه أية من علامات الخوف أو القلق.

تجاهل الشري الجلشاني تماما ووجه كلامه إلى رجاله وهيئة المحلفين قائلا: "ما رأيكم يا رجال فيمن يخون العيش والملح، فماذا يستحق؟" أجابوا كلهم في صوت واحد: "القتل طبعا". إمتقع وجه الجلشاني واصابت حلقه غصة، لا يستطيع معها بلع ريقه.

ثم توجه الشري إلى الجلشاني وسأله نفس السؤال: "ما رأيك يا جلشاني فيمن يخون العيش والملح؟" أجاب الجلشاني بتردد وصوت خافت وهو يبلع ريقه: "أيوه مظبوط". فبادره الشري: "إيه إللي مظبوط. عايز أسمع منك" أجاب الجلشاني: "الخاين يستاهل القتل".

بصق الشري في وجه الجشاني ونعته بالخائن. ثم عاتبه بغلظة، على إنخراطه في مؤامرة لقتله نظير مبلغ من المال. أنكر الجلشاني بشدة وحلف بالطلاق أنه برئ مما نسب إليه. وأن هذه مكيده من أعدائه بسبب إخلاصه وتفانيه في خدمة الشري.

حينئذ، قام أحد رجال الشري بتفتيش الجلشاني، ولسوء حظه، وجدوا مقدم الأتعاب لا يزال في الجيب الداخلي للبالطو الذي يلبسه.

عندما لم يستطع الجلشاني تبرير وجود هذا المبلغ في جيبه. انهار وجثا على ركبتيه وانحني لكي يقبل قدمي الشري ويطلب العفو والغفران. لكن الشري لم يرحمه وأمر أتباعه بقتله. صرخ الجلشاني قائلا: "أنا في

عرضك يا سعادة البيه". وهي نفس الصرخة التي صرخها الشاب ضحيته في الغيط في منتصف الليل.

بسرعة، قيد الجلشاني من يديه ورجليه. ووضعت كمامه على فمه لكي لا يصرخ. واقتيد إلى الغيط في الليل حيث كانت تنتظره حفرة عميقة. ألقي الجلشاني في الحفرة وأهيل عليه التراب لكي يدفن حيا. وفي نفس الوقت، تم خنق الخفير وإلقاء جثه في الترعة، لكي تطفو بعد ثلاثة أيام.

تفقد الأهل والابن الجلشاني. أخذوا يبحثون عنه في كل مكان. لكن لا حس ولا خبر. بعد شهر من إختفائه، جاءت الأخبار تصف ما حدث بالضبط. عرف المكان المدفون فيه الجلشاني. فذهب الإبن لكي يبلغ البوليس.

جاء أحد ضباط البوليس ومجموعة من العساكر إلى المكان المدفون فيه الجلشاني، وبدأوا الحفر. اقترب أحد رجال الثري من ضابط البوليس، ونصحه بالعودة سالما لزوجته وعياله. حينئذ، أمر الضابط العساكر بردم ما حفروه، وكتب في تقريره، إن الحفر لم يثمر عن شئ.

جن جنون الإبن وأقسم على الأخذ بالثأر. ظل يبحث عن مسدس. وقام بالفعل بشراء مسدس من تجار السلاح ووضعه أمانة عند والدي. قام والدي بوضعه المسدس على رف علوي في دولاب الملابس. عندما رأتني والدتي ألعب بالمسدس، أصابها الفزع وطلبت من والدى أن يعيده إلى صاحبه، وقد كان.

كان المسدس صغير في حجم كف الرجل البالغ، "نيكل" معدني اللون فارغ من الرصاصات. وبعد أن عاد إلى صاحبه، لم يستخدم أبدا. فلم يكن الابن شريرا مثل والده. بعد ذلك، طلب الابن نقل عمله إلى القاهرة ونسى الموضع برمته.

لكنني لم أنس هذه القصة التي كانت تتداول في كل البيوت في نهاية الأربعينات في مدينتنا. ليس الرعب موجودا فقط في القصص والروايات الأدبية، ولكن الحياة أيضا مليئة بالرعب والقسوة. التي يسميها هيجل برعب التاريخ.

الفصل الثامن

"ابو جاعورة" رجل في أواخر العشرينات من عمره. يعمل غرابيلي، أي في صناعة الغرابيل. له دكان على بعد خطوات من منزلنا، أرضه ترابية وله بوابة من الصفيح. يبيع فيه ما يصنعه من الغرابيل والمناخل.

عندما يموت حمار في المنطقة أو في قرية مجاورة، نجد ابو جاعورة قد ظهر مثل الذباب الأزرق الذي يظهر مع الرمم والجثث المتعفنة. يأتي ويشمر عن ساعديه، ويأخذ في سلخ جلد الحمار بسكين حاد قصير يسمى "خنصر". ثم يأخذ الجلد وينشره في الشمس على شاطئ الترعة لكي يجف. بعد ذلك، يقوم بتقطيعه إلى خيوط جلدية رفيعة، عندما يكون الجلد طري، لكي يصنع منها الغرابيل.

الغربال عبارة عن حلقة خشبية في شكل الطار سمكها بوصة أو بوصتين. قطرها لا يقل عن نصف المتر. أسفلها ثقوب متراصة، تمرر خلالها الخيوط الجلدية وهي طرية. ثم تترك لتنشف في الشمس، فتشد الغربال من كل جوانبه في وقت واحد. الغربال يستخدم في تنقية الحبوب وفصلها عن الطوب والظلط والحجارة الصغيرة.

ابو جاعورة هذا كان أصلعا يلبس الجلباب ويمشي حافيا. بالرغم من مهنته هذه الغير تقليدية، صناعة وبيع الغرابيل، إلا أنه كان غاوي لعب كرة القدم. حارس مرمى غير عادي.

كان يوجد بغرب مدينة فاقوس، وبجوار السلخانة، مكان فسيح يقام فيه سوق الثلاثاء لبيع المواشي ولوازم الفلاحين من الكفور والنجوع التابعة لمدينة فاقوس.

كان يوجد في نفس المكان ملعبا لكرة القدم. كنا ونحن أطفال نذهب للفرجة على فريق كرة القدم الهواة بفاقوس وهم يقومون بالتدريب. ابو جاعورة أحد أفراد الفريق. واقف حارس مرمى كالأسد الهصور. يلعب وهو حافي القدمين كعادته بملابسه الداخلية.

أثناء ذهابي للفرجة مع باقي الأطفال، رأيت حمارا مغروزا في الوحل في أرض منخفضة مروية حديثا، وصاحبه واقف على الطريق، يحاول جذب الحمار من ذيله لإخراجه من الوحل. وآخر يصرخ فيه: "حاسب حتقطع ديل الحمار يا حمار".

أرى أيضا أطفالا فقراء تجلس بجوار السلخانة. حفاة يلبسون الجلاليب الملطخة بدماء المواشي المذبوحة. يربط كلا منهم وسطه بحبل. ينتظرون خروج الذبائح محمولة على عربات الكارو.

يجري هؤلاء الأطفال خلف العربات الكارو، متظاهرين بأنهم يقومون بالمساعة في دفع العربة إلى الأمام في مطلع. ثم يغافلون صاحب الذبيحة، ويسرقون قطع لحم صغيرة بالسكين من الذبيحة. يخفونها من فتحة رقبة الجلباب داخل ملابسهم.

يجلس هؤلاء الأطفال جنب حائط السلخانة، واضعا كل منهم محصوله من قطع اللحم المسروق في حجره للبيع. تأتي النسوة الغلابة اللاتي

لا يستطعن شراء اللحم من الجزار ، لشرائها من هؤلاء الصبية. بعد المعاينة والفصال والمساومة، يبيع الطفل ما في حجره بقرش صاغ أو ثلاثة تعريفة.

السعر يتوقف على نوع اللحم وكمية الشغت والدهن وعدد القطع المسروقة وحجمها. أسعار اللحم المسروق أرخص بكثير من أسعار اللحم عند الجزار، التي كانت تباع بسعر الرطل العجالي المشفي 11 قرشا.

أحد هؤلاء الأطفال، عندما وجد أن عدد قطع اللحم قليلة والكمية صغيرة، لا تغري النسوة على شرائها، قام الخبيث بثقب جلبابه، ووضع قطع اللحم المسروقة في حجره. ثم أخرج إحليله وخصيته من الثقب بين قطع اللحم. حتى تبدو الكمية كافية لمن تراها من النسوة. طبعا هذا شئ لا يحدث في أي مكان في العالم إلا في مصر.

كان هناك مباراة كرة قدم بين مدينة المنصورة ومدينة فاقوس. فريق المنصورة يلعب في الدوري العام، مستواه أعلى بكثير من مستوى فريق الهواة بفاقوس. لكن ابو جاعورة، أثناء المباراة، كان ولا عادل هيكل في مباراة مصر-بنيفيكا في الستينات، أو عصام الحضري في بطولة أفريقيا.

كان يقف ابو جاعورة أمام خشبة المرمى حافي القدمين كعادته كالغول. يطير مثل سوبرمان، لكي يبعد الكرة عن الزوايا العلوية، ويرتمي على الأرض لكي يبعدها عن الأركان السفلية. معجزة بكل المقاييس. لقد أنقذ ابو جاعورة مرماه من أهداف محققة، ومن ركلة

جزاء. كانت النتيجة، فوز فريق فاقوس الغير متوقع على فريق المنصورة.

لا زلت أذكر خروج الجماهير الفاقوسية وهي تحمل ابو جاعورة على الأعناق وعلى رأسه قوس النصر من الزهور، كأنه يوليوس قيصر في زمانه. تسير به وسط شوارع المدينة هاتفة: "يا محني ديل العصفورة، وفاقوس هية المنصورة".

المحلات ترش الملح والملبس والفل والورد على اللاعبين، وعلى بائع الغرابيل المنتصر المحمول على الأعناق، أبو جاعورة. الذي يتعيش من سلخ الحمير النافقة وبيع الغرابيل. وعندما أسمع عن أجور لاعبي كرة القدم اليوم التي تصل إلى الملايين، أقول الله يرحمك يا ابا جاعورة.

تشتهر فاقوس بصناعة نوع من الأحذية تسمى "بلغ" مفردها "بلغة". حتى أنك تجد محل بلغاتي، بين كل محل ومحل. الطاولة التي يعمل عليها البلغاتي، مستديرة ترتفع عن الأرض حوالي نصف متر.

يقوم البلغاتي باستخدام إبرتين معقوفتين في نفس الوقت، لتثبيت جلد البلغة بالنعل. الجلد يصنع عادة من جلد الجاموس. بعد ثقب الجلد والنعل بمخراز، يقوم البلغاتي بإدخال الإبرتين من نفس الثقب. واحدة من جهة اليمين والأخرى من جهة الشمال، ثم يقوم بشد الخيطين معا بإستخدام أصابع اليدين.

نظرا لأن العملية كلها يدوية لا تستخدم فيها الماكينة، و شد الخيط يتطلب مجهودا عضليا كبيرا، لذلك تتشوه صوابع البلغاتي بالكاللو وتصبح

في شكل حبات البطاطس المستطيلة. صناعة البلغ، جاءت إلى مصر في العصر الفاطمي مع المغاربة الذين استوطنوا فاقوس.

هذا النوع من الأحذية المريحة، تناسب أرجل الفلاحين المفلطحة. لذلك انتشرت انتشارا واسعا حتي صارت حذاء قوميا. في البداية، لم تكن تعرف الفردة اليمين من الشمال. ثم طورها الفاقوسية وأصبحت متعددة الأشكال والألوان، وبلغت شهرة فاقوس في صناعة البلغ كل أرجاء مصر.

عزوز وفاروق الهندي، شابان يعملان هما ووالدهما في تصليح البوابير الجاز. ليس لهما محل، إنما يجلسان على رصيف الشارع. أمامهما طاولة خشبية قديمة عليها وابور لحام وأدوات لزوم المهنة.

دبت بينهما خناقة. تطورت إلى الضرب. نظر الأخ الأكبر إلى الأخ الأصغر شذرا وقال له: "امشي اطلع برة" فأجابه الأخ الأصغر: "هو أنت لك برة، ما احنا الإثنين على الرصيف في الهوا سوا".

وابور الجاز، قام بإختراعه طباخ فرنسي يدعى الكس سوير عام 1849م أثناء وجوده في مدينة لندن. كان يسمى الموقد السحري في بادئ الأمر. في عام 1892م، بدأ يصنع في مدينة استوكهلم بالسويد تحت اسم "وابور بريموس".

هو عبارة عن خزان نحاسي صغير للكيروسين محمول على ثلاثة أرجل. به مكبس لضغط الهواء. في أعلاه من الوسط، توجد فتحة

تركب بها رأس. الرأس عبارة عن أنبوبة مجوفة ملتفة، في وسطها ثقب رفيع يسمح بخروج الكيروسين. تسمى هذه الفتحة الفونية.

عندما يضغط الهواء في الخزان بالمكبس، يخرج الكيروسين السائل من الفونية في البداية. عند إشعال النار في الكيروسين الخارج من الفونية، تسخن الرأس ومن ثم يخرج الغاز بعد ذلك على هيئة بخار، يشتعل بطريقة متصلة ويعطينا اللهب اللازم للطهي.

لم نكن نعرف مواقد وأفران البوتاجاز الحديثة التي تعمل بغاز الميثان. نظرا لرخص ثمن الوابور البريموس، لم يخل منه بيت في المدن أو الأرياف في ذلك الوقت. كان يسبب بعض الحوادث عندما ينفجر بسبب الضغط داخل الخزان وإنفصال قاعدته.

على بعد مئات الأمتار من منزلنا، كانت توجد عمارة أربعة أدوار. يسكن بالدور الأرضي فيها أسرة تاجر له محل. في يوم من الأيام، وعندما كانت الزوجة تقوم بطهي الطعام لأولادها وزوجها، قام حريق بسبب إنفجار الوابور البريموس. أودى بالسيدة وأطفالها الأربعة.

بسرعة تجمع أصدقاء التاجر. قام بعضهم بالإجراءات اللازمة الخاصة بالدفن وإقامة سرادق العزاء وإحضار المقرئين. وأصدقاء آخرون قاموا بالإلتفاف حول التاجر المكلوم.

أخذوه في سيارة إلى القاهرة لزيارة كل الأضرحة المشهورة والمساجد الكبيرة ولم يعودوا به إلا في اليوم التالي. كيف يتحمل الإنسان الضعيف، مصيبة في حجم هذه دون إيمان وتسليم بالمشيئة؟

في نهاية الشارع، يوجد مقام الجربي الكبير. ويوجد في حارة ضيقة جانبية مقام الجربي الصغير. وهو مقام صغير في أعلاه تجويف لوضع شمعة مشتعلة، يبدو أنه لطفل.

مقام الجربي الكبير يتوسط الشارع العمومي ويقطع إستقامته. لذلك تجد الشارع يلتف حوله كأنه يحتضنه. يتبارك الناس بزيارة المقام والدعاء ووضع بعض النقود في صندوق النذور . من القصص التي سمعتها عن الشيخ الجربي:

أثناء الحرب العالمية الثانية، أسقطت الطائرات الألمانية قنبلة في حجم الزير على مقام الجربي. قبل أن تصل القنبلة إلى الأرض، وجد الناس رجلا يلبس الجلباب الأبيض يخرج من المقام. هالة من النور تشع من وجهه ورأسه. يلتقط القنبلة بين ذراعية، ويضعها بجانبها على الأرض برفق. ثم يعود للقبر لكي يواصل نومه الأبدي.

أخي الصغير تأخر في الكلام. مع قلق الوالدة، جاءت النصيحة من الأهل والجيران بأن العلاج هو أن نشحت به على البيوت. تركت والدتي الأمر للجيران لكي يتصرفوا.

أخذ الجيران أخي الصغير، ووضعوه في قفة. وقامت بنتان من الجيران بحمل القفة من أذنيها. وذهبتا تطرقان الأبواب للسؤال عما يجود به أهل الكرم والإحسان. هذا البيت يعطيه رغيفا من الخبز، وذاك شقة بطيخ. وآخر مشطين سمك مشوي.

طبعا أخي الذي أصبح فيما بعد مديرا عاما وعضوا منتدبا في أكبر شركات القطاع العام في مصر، لا يتذكر هذه القصة الطريفة ولا يعلم أنني أكتب عنها قبل أن يطويها النسيان.

نحن الآن في شهر رمضان. وكان شهر رمضان يأتي في نهاية الأربعينات في الصيف شديد الحرارة. أمام منزلنا فرن مؤقت لعمل الكنافة.

هو عبارة عن صينية نحاسية مستديرة كبيرة تستند على قاعدة مستديرة من الطوب اللبن ومرتفعة عن الأرض مسافة متر ونصف أو مترين. بها فتحة تحت الصينية توقد بها النار.

يقوم الفران بوضع العجين السائل في كوز كبير. بأسفله ثقوب على خط مستقيم. ثم يقوم برش العجين الذي ينزل من الكوز على الصينية الساخنة في شكل دوائر متوازية.

تعتبر الكنافة والقطايف من أطباق الملوك وأشهر أطباق شهر رمضان. كانت تعمل من عجين الحنطة، وتنضج في السمن وتحشى بالمكسرات أو الكريمة في الفرن ثم تسقى بشراب السكر المعقود.

يقال أنها من اختراع أهل الشام. صنعت خصيصا لمعاوية بن أبي سفيان عندما كان واليا على الشام، وكانت تسمى "كنافة معاوية". قيل أيضا أنها صنعت خصيصا لسليمان بن عبد الملك الأموي.

في رواية أخرى أنها صناعة مصرية قدمت كهدية للخليفة المعز لدين الله الفاطمي عند دخوله القاهرة واستقباله بالفوانيس، وكان ذلك في شهر رمضان. ثم انتقلت بعد ذلك إلى الشام. وللإمام السيوطي رسالة في الكنافة والقطايف سماها "منهل اللطائف في الكنافة والقطايف".

أما القطايف، فيرجع تاريخها أيضا إلى أواخر العصر الأموي وربما تكون أسبق اكتشافا من الكنافة. ويقال إنها أيضا من اختراع العصر المملوكي، حيث كان يتنافس صناع الحلوى على ابتكار أصناف جديدة. فابتكر أحدهم فطيرة قطايف محشوة بالمكسرات وقدمها في شكل جميل في صحن كبير لكي يقطفها الضيوف. من هنا جاء اسم القطايف.

لا زلت أشم رائحة الكنافة والقطايف كلما جاء شهر رمضان كل عام. كذلك رائحة ألواح الثلج في الدكان خلف فرن الكنافة. وأشم رائحة تراب الشارع ورائحة البطيخ على الموائد. وأطباق الطرشي وأطباق قمر الدين وشرابه والمكسرات. كذلك، رائحة صناديق وزجاجات البيبسي كولا والكوكاكولا الفارغة على الرصيف.

لقد كانت البيبسي كولا جديدة لم نشاهدها من قبل. الزجاجة الواحدة كانت في حجم زجاجتين كوكاكولا ونصف. تباع بنفس سعر زجاجة الكوكاكولا الواحدة، ثلاثة تعريفة.

تأتي البيبسي كولا في ثلاث خيارات. سكر زيادة وسكر مضبوط وسكر خفيف. كانت توجد علامات على ظهر الزجاجة، مثلث ودائرة ومربع، للدلالة على درجة السكر الموجود بالزجاجة.

ظهر أيضا مشروب جديد ألماني تحت اسم "سينالكو". شبيه بشراب السيدر. وكانت توجد أيضا المياة الغازية المحلية، ليمون وسيدر عبد الغفار. الذي لم يستمر لمدة طويلة.

كان يوجد كذلك، مشروب "سباتس" لصاحبه الخواجه اسبيرو سباتس ومصنعه في الإسكندرية. وهو شراب ليمون بالصودا، لا أعتقد أنه موجود حاليا.

كانت محلات البقالة، تباع بها علب الكاكاو المستوردة من إنجلترا وعلب الملبن المستوردة من تركيا. والششم أبو ديك لعلاج العماص واحمرار العيون. والتبغ والمعسل وعلب السجاير بأنواعها والكبريت الهلب. كانت توضع أجولة المكسرات واللب والفول السوداني والخروب والعطارة أمام محلات البقالة على الرصيف.

كان الزبون يزهب لشراء علبة سلامون أو سردين، فيطلب من البقال أن يفتحها له. ثم يقوم البقال بإضافة الزيت والخل على العلبة المفتوحة زيادة في الكرم. وقبل أن ينصرف الزبون، يطلب شوية لب فوق البيعة. فيكبش البائع بيده كمية لب من الشوال الموجود أمام المحل ويعطيها للزبون مجانا. كل هذا بثلاثة تعريفة أو قرشين صاغ.

كان السردين المشوي يباع في القفف والمقاطف في الشارع على الرصيف. والبلح في موسمة تجلس به الفلاحات على الرصيف ويباع بالمشنة. وكذلك التوت والجميز.

العيش البلدي كان يسمى "المفقع". يخرج الرغيف من الفرن منتفخ مثل البالونة، فيقوم الخباز بضغطه من المنتصف بكوز فارغ لإخراج الهواء المحبوس داخله، ثم يقوم برشه بالماء وإعادته للفرن ثانية. ليخرج رغيفا مقرمشا لامعا يسر الناظرين، ويؤكل حاف بدون غموس.

كان الصانع يتفنن في إجادة صنعته وكنا نلمس الخير والثراء في كل مكان. هذا ما كان أجدادنا يسمونه البركة. فأين ذهب كل هذا، وأين اختفت البركة؟

الفصل التاسع

أنا الآن في مدرسة فاقوس الإبتدائية_الثانوية للبنين. المرحلة الإبتدائية أربع سنوات. تدرس بها اللغة الإنجليزية في السنة الثالثة والرابعة. المرحلة الثانوية كانت خمس سنوات تتقسم إلى علمي وأدبي. بجوار مدرسة البنين، كانت توجد مدرسة البنات.

نحن في أواخر الأربعينات، وأنا لا زلت في المرحلة الإبتدائية. كان يوم استلام الكتب يوم عيد بالنسبة لي. لسبب ما لا أعلمه كنت أعشق الكتب وأهيم وجدا بها. إلى الدرجة التي جعلتني، قبل أن أدخل المدرسة، أذهب لشراء كتاب مطالعة، للفرجة على الصور الموجودة به.

كانت المدرسة تصرف لنا الكتب بالمجان. كذلك الكراريس بكل أنواعها. الكراريس المسطرة، وصفحة وصفحة، وكراريس اللغة الإنجليزية والرسم وأقلام الرصاص والريش وسنون الريش للكتابة بالحبر، والمساطر والأساتيك المكتوب عليها "الحكومة المصرية" أو "وزارة المعارف". وكانت الكراريس مكتوبا على غلافها الخارجي الخلفي، صفحة إرشادات أو جدول الضرب. إرشادات من نوع: "نم مبكرا واستيقظ مبكرا"، أو "اغسل يديك قبل الأكل وبعده"...إلخ.

أحد المدرسين، جاء إلى الفصل في يوم شديد البرودة. فوجد تلميذا يلبس القميص بدون بلوفر أو جاكت. خاطبه برفق: "يا ابني الدنيا برد، وأنت جاي لابس قميص خفيف، بعدين تمرض".

لكن التلميذ، جاء في اليوم التالي بنفس الملابس. هنا غضب المدرس وقال له: "أنا قلت لك تلبس ملابس ثقيلة؟ جاي برضه بالقميص الخفيف؟" أجاب التلميذ: "يا أفندي ليس عندي غير هذا القميص ألبسه".

في اليوم التالي، جاء المدرس بكيس ورق به بلوفر جديد للتلميذ الفقير وأعطاه له بعد التأكد أنه على مقاسه. عندما تردد التلميذ في قبول البلوفر، قال له المدرس: "يا ابني أنا زي والدك". وفعلنا كان المدرس في ذلك الزمن الجميل مثل الوالد للتلميذ.

كان توفيق أفندي مدرس العربي، خطاطا ليس له مثيل. لوحات الخط العربي بكل أشكاله تزين غرف المدرسين وغرفة الناظر. كان يعرف والدي، ولكن لا يعرفني. في يوم من الأيام، تشاجرت مع تلميذ آخر كعادة التلاميذ في هذه السن.

ذهب التلميذ اللئيم ودموعه تنساب مثل دموع التماسيح لكي يشتكي لتوفيق أفندي مدرس الفصل. أحضرني توفيق أفندي وسألني عن إسمي. عندما علم أن والدي هو توفيق أفندي الذي يعمل في بنك التسليف، إذا به يصفعني قائلا: "يا أخي أبوك صاحبي، وأنت طالع ابن كلب لمين؟"

كان الأسلوب المتبع في التعليم والتربية في ذلك الوقت، هو استخدام العقاب والضرب إذا لزم الأمر. أي تربية الأولاد على الخشونة والرجولة والصدق والشجاعة والأمانة وأدب الحوار والإستماع الجيد.

الفكرة هي أن نعرض أولادنا للريح والشمس والمطر والبرد والخطر، حتي يخشوشنوا ويتخلصوا من مظاهر الضعف والليونة في ملبسهم ومأكلهم ومشربهم ومسلكهم. الهدف هو تكوين شاب قوي مسؤول بدلا من شاب مايع ضعيف.

كانوا يعلمون الأولاد الوطنية والتعايش السلمي بين أبناء الوطن الواحد. فلم أعرف أبدا أثناء دراستي كلها أي فرق بين المسلم والقبطي. كنت أجلس بجوار مختار ميخائيل بقطر، الذي أصبح طبيبا فيما بعد، وهاجر إلى كندا في أوائل السبعينات.

كان أفضل المدرسين وأقربهم إلى قلبي، الأستاذ خليل مدرس الرياضة الذي حببني في هذا العلم. والأستاذ متري مدرس اللغة الإنجليزية، الذي كان يحكي لنا عن أمجاد مصر الفرعونية وعرفني بأسطورة إيزيس وأوزوريس.

بالطبع، لا أنسى أفضال أساتذتي الأقباط في الجامعة، الدكتور ملتيادي حنا والدكتور فهمي إبراهيم والدكتور مقار. فمن منا لم يتعلم على أيدي مدرسين أقباط أو يعالج بأيدي أطباء أقباط. ومن من الإخوة الأقباط من لم يفعل نفس الشئ بالنسبة للمدرسين أو الأطباء المسلمين.

كان مدرسي اللغة العربية، يختلفون عن باقي المدرسين. في الملبس والمظهر وأسلوب التدريس. السبب يرجع لاختلاف الخلفية التعليمية لكل منهم. مدرس اللغة العربية غالبا كان تعليمه أزهري أو ديني، أما باقي المدرسين فكانوا خريجي الجامعات المصرية.

لذلك نجد مدرس العربي يلبس الكاكولا أو الجبة والقفطان والعمامة، أو البدلة والطربوش ورباطة العنق. لكن غالبا ما تكون البدلة ضيقة وغير مكوية ورباطة العنق قديمة وكلها بقع وربطتها كبيرة وألوانها غير مناسبة. القميص ناقص زرار أو اثنين ومفتوح من الوسط. والألوان غير متناسقة.

كان مدرس العربي يختلف أسلوبه في التدريس أيضا. فهو يميل إلى الشدة ويستخدم الضرب بالعصا أكثر. يركز على الحفظ والتسميع. أكثر صرامة، يطلب الإحترام الكامل والطاعة العمياء من التلميذ. وهذا هو الأسلوب القديم في التعليم.

وجدني الألفي أفندي، مدرس العربي، أقرأ مجلة البعكوكة الفكاهية أثناء قيامه بشرح أحد الدروس. سألني عن موضوع الدرس، لكنني كنت في واد آخر مع شخصيات البعكوكة، أم سحلول والدكتور مكسوريان والنكت الجديدة.

ثار المدرس ثورة عارمة، وهجم على جريدة البعكوكة كالوحش الكاسر. قام بتمزيقها إربا وإلقائها في سلة المهملات. بعد أن هدأت ثورته، أعطانا درسا في التربية والأدب، ووجوب الإنصات التام والطاعة العمياء، عندما يقوم المدرس بالشرح.

تاريخ الصحافة الفكاهية، يرجع إلى عصر الخديو إسماعيل في القرن التاسع عشر. فقد أصدر يعقوب منوع أول جريدة فكاهية، "أبو نظارة" عام 1876م بمدينة القاهرة. وكانت تكتب باللغة الدارجة والصور

الكاريكاتورية. وكانت تقوم بنقد الخديو إسماعيل وسياسته في الإقتراض من الأوروبيين.

ثم أصدر عبد الله النديم في عام 1891م، صحيفة "التنكيت والتبكيت". وهي صحيفة أدبية تهذيبية، تناولت النقد بطريقة ساخرة. وكانت تناهض الإحتلال البريطاني وتدافع عن الفصحى وتدعو للمحافظة عليها. مما تسبب في نفي النديم إلى يافا في فلسطين.

عندما عاد النديم إلى الديار المصرية في عهد الخديو عباس حلمي الثاني عام 1892م، أنشأ جريدة "الأستاذ". وواصل مناهضته للإحتلال البريطاني، مما تسبب في نفيه إلى يافا مرة ثانية.

في مطلع القرن العشرين، صدرت مجلات وصحف فكاهية كثيرة. استقطبت مشاهير الأدباء، أمثال بيرم التونسي وحسين شفيق المصري بأسلوبهما الفكاهي المحبب للقراء.

في عام 1900م، أصدر محمد توفيق مجلة "حمارة منيتي". وفي عام 1907م، أصدر أحمد حافظ عوض مجلة خيال الظل وأدخل فيها الصور الكاريكاتورية. وظهرت أيضا مجلات "السيف" و"السيف والمسامير" للتهكم واستخدام القفشات في نقد الحكم.

ثم ظهرت أشهر المجلات الفكاهية "الكشكول" عام 1921م لصاحبها سليمان فوزي. وهي مجلة سياسية فكاهية. كانت تهاجم الزعيم سعد زغلول وتنتقد سياسة الوفد بالصور الكاريكاتورية والمقالات الفكاهية.

ثم ظهرت مجلات "البغبغان" و"السيف" و"الناس" و"المسامير". وفي عام 1928م، أصدر بديع خيري مجلة فكاهية "ألف صنف"، وفي عام 1930م، صدرت المجلة الفكاهية الأسبوعية "المطرقة"، وكانت لسان حزب الوفد المعارض لحكومة صدقي باشا.

في عام 1934م، أصدر محمود عزت المفتي مجلة "الراديو". تحولت فيما بعد إلى مجلة "البعكوكة"، التي قام الألفي أفندي مدرس العربي بتمزيقها في الفصل.

كانت دار الهلال قد أصدرت مجلت الفكاهة عام 1926م، التي أدمجت في مجلة الإثنين التي كانت تجمع بين الجد والفكاهة. فما أحوجنا اليوم إلى المجلات الفكاهية، لكي تعود البسمة إلى الوجوه الحزينة.

بالنسبة لمجلات الأطفال، أول مجلة أطفال صدرت في مصر كانت عام 1893م بإسم "المدرسة". كانت لا تعدو أن تكون وريقات قليلة تتعلق بالموضوعات المدرسية.

في عام 1952م، أصدرت دار المعارف أعظم وأجمل مجلة أطفال ظهرت في مصر على الإطلاق، مجلة "سندباد". كانت تتميز بالإتقان والجدية، وتلتزم وتكتب بالعربية الفصحى. وكان يرأس تحريرها لمدة عشر سنوات محمد سعيد العريان. ويقوم بالرسم فيها حسين بيكار وموريللي.

صدرت في نفس الوقت مجلة "علي بابا". وهي أقل مستوى وانتشارا من مجلة سندباد. وفي عام 1956م، أصدرت دار الهلال مجلة سمير

التي كانت تعتمد على القصص الأجنبية ذات المحتوى الردئ. ثم صدرت في نفس العام، مجلة ميكي التي لا تزال تصدر حتى الآن. والتي لا تناسب موضوعاتها الغريبة، الشخصية المصرية على الإطلاق.

في عام 1977م، صدرت مجلة "صندوق الدنيا"، بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين. وفي عام 1983م، صدرت مجلة "المسلم الصغير" عن جمعية الأسرة المسلمة.

المناهج التعليمية والكتب المدرسية، كان يضعها كبار الأدباء وأساتذة التربية والتعليم الكبار أمثال: أحمد أمين وطه حسين وعبد العزيز البشري والمازني والعقاد وأحمد تيمور ومحمود تيمور وغيرهم. وكانت تهدف هذه المناهج إلى التربية السليمة وبث القيم الخلقية وتنمية الروح الوطنية، إلى جانب التعليم والتربية الرياضية.

كانت الكتب المقررة ذات قيمة أدبية وتربوية عالية مثل: كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، وكتاب الأخلاق لأحمد أمين، وكتاب أدب الدنيا والدين للماوردي،...إلخ.

كانت البرامج الإذاعية في الراديو منتقاة وهادفة ومسلية في نفس الوقت، مثل: "على بابا والأربعين حرامي" و"قسم وأرزاق ومعروف الإسكافي"، وبرامج "بابا شارو"، "ركن الريف"، وغيرها. .

كانت الأغاني والموسيقى على أعلى مستوى من الرقي والذوق السليم. أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وليلى مراد وغيرهم.

وكان لا يجرؤ مطرب أو ملحن أو مؤلف أغاني من الإقتراب من الإذاعة إلا إذا كان مستواه وأداؤه الفني عاليا.

أفلام السينما كانت أيضا هادفة، تسلي وتساعد على التربية السليمة. وكانت البيوت لاتزال تحتفظ بقيمها النبيلة المتوارثة منذ آلاف السنين. وكان رجال الدين، معتدلين في فتاويهم وتفسيراتهم الدينية. لذلك، كان الإنسان المصري في هذا الزمن الجميل، محاصرا بكل ما هو عظيم ونبيل.

بعد امتحان الفترة الأولى في مادة اللغة العربية، سألت أحد التلاميذ عما فعل في الإمتحان. فأجاب بأنه وجد الإمتحان سهلا، مما جعله يجيب على كل الأسئلة. هذا يعني أنني سوف أرسب في هذا الإمتحان، لأنني لم أجب على عدد كاف من الأسئلة يسمح بالنجاح. فماذا أفعل؟

طبعا لكل مشكلة حل. نحن في مثل هذه السن المبكرة، لا نحسب العواقب جيدا، ولا نقدرها حق قدرها. وجاء إبليس اللعين، لكي يوحي إلى بفكرة جهنمية. قمت بتنفيذها على الفور.

انتظرت حتي انتهاء اليوم الدراسي وانصراف التلاميذ، وذهبت إلى غرفة المدرسين. وجدتها خالية، وكراريس الفصل كلها على مكتب مدرس اللغة العربية في انتظار التصحيح ورصد الدرجات.

لم أتردد لحظة واحدة، فقد كان الخوف من الرسوب هو الهاجس المسيطر على عقلي في هذه اللحظة. قمت بحمل كل الكراريس وخرجت بها مهرولا من غرفة المدرسين ومن المدرسة.

ماذا أفعل بالكراريس؟ لا أستطيع أن أذهب بها إلى المنزل. وكان الحل هو "عم عبده بتاع اللب". فهو يشتري الجرائد والكتب القديمة والمجلات لكي يعمل من ورقها قراطيس اللب. ذهبت إلى عم عبده لكي أعرض عليه شراء هذه الكراريس.

تردد الرجل وسألني: "عاوز تبيع الكراريس دي ليه يابني؟" فأجبته لأنها لم تعد لازمة بعد انتهاء الفترة الدراسية. تظاهر بالموافقة وطلب مني الحضور في اليوم التالي لأخذ ثمنها.

في اليوم التالي، وجدت المدرسة في حالة طوارق مثل خلية النحل. الفراشون يجرون هنا وهناك. يدخلون الفصول واحدا بعد الآخر ومعهم مدرس اللغة العربية. أنا فقط دون باقي التلاميذ الذي يعرف ماذا يجري في المدرسة.

بعد ساعة أو ساعتين من بدأ الدراسة، جاء من يطرق باب الفصل. فتح مدرس الحصة الباب، فدخل الناظر ومعه مدرس اللغة العربية وخلفهم "عم عبده بتاع اللب".

كنت أجلس في أول تختة في أول صف بجوار باب الفصل. وقف عم عبده بتاع اللب،بجلبابه البلدي وطربوشه الأحمر الزاهي، وكرشه الممتد أمام وجهي، وأخذ يتفقد التلاميذ مليا واحدا تلو الآخر. ولأن المولى عز وجل أمر بالستر، ولقرب عم عبده الشديد مني، لم يرني. وقال لناظر المدرسة الذي كان يقف متربصا وعيناه يتصاعد منهما الشرر: "لا موش هنا". ثم خرج ليبحث عن اللص في الفصول الباقية.

طبعا أنا لا أريد أن أصف حالتي النفسية للسادة القراء في ذلك الوقت. أعتقد أنني لم أمر في حياتي بموقف رعب مثل هذا. كنت أقول في نفسي: "آه لو كان عم عبده شافني"، كله إلا كده. ظلت هذه الفكرة اللعينة تراودني عدة ليال، لا أستطيع النوم بسببها أو التخلص منها.

الغريب أنني نجحت في الإمتحان وأخذت درجة أعلى من التلميذ الذي قال لي أنه أجاب على كل الأسئلة، وكان السبب في هذه المدلهمة العظمى.

مثل هذه الأمور تحدث بكثرة للأطفال. تحدث في مراحل تكوين براعم "الأنا الأعظم" وفي بداية تشكيل الضمير. لذلك يجب أن نكون حذرين في تعاملنا مع الأطفال. لكي نستطيع مساعدتهم على النمو النفسي السوي والتغلب على هذه المشاكل، دون أن نسبب لهم شروخا أو تشوهات نفسية تلازمهم في الكبر.

الفصل العاشر

في عام 1952م، نظمت مدرستنا رحلة للطلبة في أجازة نصف السنة إلى القاهرة. كانت أجرة الإشتراك في الرحلة خمسون قرشا. تشمل المواصلاة واللوكاندة والوجبات الغذائية لمدة أسبوع كامل. المشرف على الرحلة الأستاذ القاضي مدرس التاريخ، ومعه مدرس آخر مساعد. عدد الطلبة المشتركين في الرحلة لا يزيد عن عشرين طالب.

كانت الرحلة من مدينة فاقوس إلى القاهرة بالقطار. هذه أول مرة أرى فيها القاهرة. كان نزولنا في لوكاندة "مصر" بميدان العتبة. لوكاندة مصر لم تكن لوكاندة خمس نجوم، ويمكن اعتبارها من الفنادق الشعبية. لكن القاهرة كانت في ذلك الوقت مدينة خمس نجوم بمعنى الكلمة.

إذا كان هناك حب من أول نظرة، فهذا كان شعوري نحو القاهرة، عند رأيتها أول مرة. لم تكن مكتظة بالسكان كما هي الآن. شوارعها كانت نظيفة كأنها مغسولة بالماء والصابون. واجهات المحلات الرخامية والفتارين الزجاجية والإضاءة والديكورات الجميلة تدل على ثراء وأصالة وعظمة.

يفط المحلات رقيقة مكتوبة بحروف من نور. لمبات النيون بألوانها المتناسقة وأنوارها البهية تسر الناظرين. الشوارع مستقيمة تنتهي بميادين فسيحة تتزين بالتماثيل البرونزية والزهور. خطوط الترام وسط شوارعها تزيدها جمالا وخصوصية.

كانت غرفتنا، التي تتسع لأربعة تلاميذ، في لوكاندة مصر تطل على ميدان العتبة الخضراء. بجوارها حديقة الأزبكية، وخلفها دار الأوبرا الخديوية التي احترقت عام 1971م. بعد جولة قصيرة لمعالم القاهرة القريبة، تناولنا العشاء في أحد المطاعم القريبة، ثم ذهبنا إلى غرفنا للنوم.

لكن كيف ننام ونحن في القاهرة. صخب الميدان وصوت السيارات وعربات الترام، تذكرنا باستمرار بأننا في مدينة كبيرة عظيمة. أعمدة النور والمحلات التجارية ويفط النيون للإعلانات، ترسل أضواءها المتغيرة لكي تنير أجزاء من حائط الغرفة بالألوان المتحركة.

أخذنا نسلي أنفسنا قبل النوم بالقصص والحكايات والنكت. أحد هذه النكت التي قيلت ولازلت أتذكرها حتى الآن هي النكتة التالية:
"واحد بخيل معه أربع بلحات. فتح البلحة الأولى في ضوء المصباح فوجد بداخلها دودة. رماها. ثم أطفأ المصباح وأكل الثلاث بلحات الباقية"

القاهرة مدينة عظيمة تطورت عبر القرون. كان اسمها مدينة القتال "حري عي" منذ ستة آلاف سنة قبل الميلاد. ثم مدينة الشمس "أون" أو "هليوبوليس" منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد. ثم أصبحت مدينة الفسطاط التي بناها عمر بن العاص عام 641م، لسكن جنوده. بعد ذلك أضيفت إليها مدينة العسكر في العصر العباسي. ثم القطائع في عصر أحمد بن طولون، وهي التي يقع بها جامع ابن طولون الشهير.

عندما غزا الفاطميون مصر وأرادوا بناء مدينة لهم محاطة بسور. جمع قائدهم، جوهر الصقلى، المنجمين وأمرهم بأن يختاروا طالعا لحفر الأساس شمال مدينة الفسطاط، وطالعا آخر لرمي حجارته. فثبتوا بالسور قوائم خشبية. وأوصلوا هذه القوائم بحبال علقت فيها أجراس. حتى يرمى البناؤون الحجارة حينما تدق الأجراس .

حدث أن غرابا شاردا وقف على إحدى هذه الخشبات، فدقت الأجراس، وظن البناؤون أنها إشارة البدء لإلقاء حجر الأساس للسور آنذاك.

صاح المنجمون لا لا، القاهر (كوكب المريخ) فى الطالع. هذا لا يبعث على التفاؤل. عندما قدم المعز لدين الله الفاطمي لمصر وسمع القصة، راقت له الفكرة، فسمى المدينة "القاهرة"، وأصبحت هى "قاهرة المعز" بدلا من الإسم المقترح وكان "المنصورية".

اللوكاندة التي كنا ننزل بها في ميدان العتبة الخضراء، تقع خارج قاهرة المعز. ميدان العتبة وكذلك باقي منطقة وسط البلد، كانت أرضا بلقعا وبركا ومستنقعات حتي نهر النيل. تغمرها مياة الفيضان معظم الوقت. يرجع الفضل في تعمير منطقة وسط البلد للخديو اسماعيل ووزيرة علي باشا مبارك.

في بداية ولاية الخديو اسماعيل التي دامت من عام 1863م إلى عام 1879م، قام الخديو بزيارة باريس. اعجب اعجابا بالغا بالحضارة والعمران الباريسي. ومن ثم عاد إلى مصر عاقدا العزم والنية على أن يجعل من القاهرة باريس أخرى على النيل.

طبعا القدر يلعب دورا هاما في حياة الشعوب. في هذه الأثناء، كانت الحرب الأهلية على أشدها في الولايات المتحدة بسبب قضية تحرير العبيد. بالتالي كانت هناك أزمة في إنتاج القطن العالمي نظرا لغياب القطن الأمريكي.

اتجهت الأنظار إلى القطن المصري وغلا سعره. زادت صادرات القطن المصري إلى السوق العالمية من 16 مليون دولار عام 1862م إلى 56 مليون دولار عام 1864م. القطن كان بالنسبة لمصر في ذلك الوقت، مثل البترول بالنسبة لدول الخليج بعد حرب 1973م.

الفلوس موجودة، والنية معقودة، والأيدى العاملة متوافرة، والخديو كان يقول هوايتي الطوب والمونة. فماذا ينقصنا الآن؟ الذي ينقصنا هو الخبرة. فلنستورد الخبرة اللازمة. لذلك تطلعت الأنظار إلى خبرة الإيطاليين والفرنسيين في تخطيط المدن والمعمار.

في نفس الوقت، أسس الخديو إسماعيل مدرسة الري والمهندسخانة في العباسية، التي أصبحت فيما بعد كلية الهندسة بجامعة القاهرة. وأسس أيضا مدرسة الفنون والحرف ببولاق، التي صارت نواة لكلية الهندسة جامعة عين شمس فيما بعد.

قام علي باشا مبارك بتعيين الأوروبيين وخصوصا الإيطاليين منهم في وزارة الأشغال وفي المشاريع الخاصة بالبناء وتخطيط القاهرة الجديدة، وبناء قصور الخديو والفيلات الخاصة.

بعض الأسماء التي لمعت هي: فرانسيسكو باتيجيللي، كارلو برامبوليني، برتو أفوسكاني، كارلو فيرجيليو سيفاجني، لوجي جافاس، أوجستو سيساري، وجوزيب جاروزو، الذي قام ببناء متحف الآثار المصري، وقصر عابدين، وفندق شبرد، ومبنى المطافي في ميدان العتبه، الذي يمكن رؤيته من نافذة لوكاندة مصر.

معظم المباني التي بناها الإيطاليون كانت على غرار مباني عصر النهضة في إيطاليا. حيث الأعمدة "التوسكان" والدعامات "الأيونية" والشبابيك والأبواب المزينة بالتماثيل.

أما المهندسون الفرنسيون، فكانوا مشهورين بالطراز "الباروكي" الفرنسي، الذي ظهر في بعض مباني القاهرة وحي جاردن سيتي والظاهر. حيث البلكونات الرقيقة، وشغل الحديد و"الفرجيه" في الأبواب والشبابيك ومداخل الرخام والمشايات.

قام "باريليه ديشامبز" المهندس الفرنسي مع "ديلشيفاليريه"، بتصميم حديقة الأزبكية على نمط الحدائق الفرنسية. ونقلت إليها مجموعة أشجار ونباتات نادرة الوجود من كل أنحاء العالم. وعملت بها بحيرة صناعية صغيرة بها قوارب للنزهة تعمل بالبدال مثل الدراجات.

أنشئت فوق البحيرة عدة كباري. وبنيت على ضفافها استراحات شرقية لتناول الشاي، ومطاعم لتناول الوجبات الخفيفة واستديو للتصوير الفوتوغرافي، وسرادق على النمط الصيني، ومدرسة للتدريب على رياضة الشيش، ومسرح (مسرح الأزبكية) ومول تجاري.

وكان الخديو يعرض الأراضي الفضاء في منطقة وسط البلد للبيع بثمن بخس بشرط أن تقوم بالبناء في خلال 18 شهر وأن لا تقل التكلفة عن 30 ألف فرنك للمبنى الواحد.

أمر الخديو ببناء دار الأوبرا الخديوية في الأزبكية عام 1868م، على نمط دار أوبرا "لاسكالا" في ميلانو. بناها الإيطالي "بيترو أفوسكاني" في خمسة شهور. لكي تعرض فيها أوبرا عايدة لفيردي والتي كتبها مدير المتحف المصري جان فرانسوا شامبليون. لكن الأوبرا لم تكن مكتملة عند افتتاح قناة السويس. لذلك عرضت بدلا منها الأوبرا الإيطالية "ريوجوليتو" وهي أيضا لفيردي.

تم بناء كوبري قصر النيل في عصر الخدوي إسماعيل عام 1871م. وهو أقدم الكباري التي انشئت في القاهرة. يقع بالقرب من ميدان التحرير، ويتميز بتلك التماثيل الأربعة للأسود القابعة عند مدخلي الكبري. قامت ببنائه شركة فرنسية. وتم إعادة بنائة عام 1932م في عهد الملك فؤاد.

أما بالنسبة لكوبري أبو العلا المصنوع من الصلب، والذي أكمل بناءه عام 1912م في عهد الخديو عباس حلمي الثاني، فالخطأ الشائع هو أن المهندس الفرنسي إيفل، باني برج إيفل بباريس، هو الذي بناه. لكن هذا غير حقيقي. باني كوبري أبو العلا هي الشركة الفرنسية "فيف ليل".

من القصص التي تروى عن كوبري أبو العلا أن مهندسه عندما تم انشاؤة، ووجده لا يفتح للمراكب كما يجب، قام بالإنتحار بأن ألقى بنفسه من فوق الكبري.

هذا أيضا كذب لا نصيب له من الصحة. الكبري كان يفتح ويقفل في بادئ الأمر بدون مشاكل وكان تحفة هندسية لم نستطع الحفاظ عليها. لكن لسوء الصيانة، أصبح فتحه متعذرا بسبب الصدأ. كوبري أبو العلا القديم تم تفتيته عام 1998م لبناء كوبري جديد مكانه. أما إيفل المهندس الفرنسي، فهو باني الكبري المعلق بحديقة الحيوان بالجيزة.

حديقة الحيوان بالجيزة، أمر بانشائها الخديو إسماعيل. وتم افتتاحها عام 1891م في عهد الخديو توفيق. وكانت توجد بها زهور ونباتات وأشجار مستوردة. بها قرابة ستة آلاف حيوان، تمثل 175 نوعا مختلفا. بينها أنواع نادرة من التماسيح والأبقار الوحشية. وهي تقع على مساحة 80 فدان.

كانت توجد بها جداول مائية وكهوف بشلالات وجسور خشبية. وبحيرات للطيور المعروضة. وكان بها أيضا مجموعة نادرة من الطيور والزواحف ومتحف للحيوانات والطيور والفراشات المحنطة.

سرعان ما أصبحت القاهرة مدينة لا تضاهيها مدينة أخرى. لا في الشرق ولا في الغرب. ولا في أوروبا ولا في أمريكا. وكان على باشا مبارك يشرف على تصميم شوارعها وميادينها بنفسه لكي تكون أفضل من شوارع وميادين مدينة باريس.

أحد قصور الخديو إسماعيل الذي خصص سابقا للزوار، أصبح فدق شبرد فيما بعد. شارع الهرم المزين بالأشجار على الجانبين، كانت به إستراحة تحولت إلى فندق ميناهوس.

القصر المخصص للملوك وكبار الزوار في إفتتاح قناة السويس، كان يقع في أرض الجزيرة المعروفة حاليا بالزمالك والذي نزلت به الإمبراطورة أوجيني من فرنسا، وولي عهد بروسيا، وغيرهم من الزوار. هذا القصر أصبح الآن فندق ماريوت.

في شارع شبرا، كانت أشجار الأكاسيا والجميز على الجانبين. وكان من أهم شوارع القاهرة. لأن علية القوم حزت حزو الخديو في بناء الفيلات والقصور الفارهة على الجانبين.

لكن أين ذهبت هذه الكنوز المعمارية؟ وكيف تثنى للفرنسيين الحفاظ على ثروة باريس المعمارية وتحويلها إلى أسطورة، بينما كنوزنا المعمارية بوسط البلد قمنا بتحويلها إلى عيادات مهملة وورش ودكاكين وبوتيكات قبيحة المنظر. وأضاع الإهمال والغباء وعدم الوعي، أعمالا فنية شديدة الرقي والروعة. كانت في يوم من الأيام آيات للفن والتاريخ والثقافة.

ما يقرب من ثلاثمائة عمارة ومبنى وسط القاهرة، تترك للقذارة والزبالة والحشرات والقوارض والرطوبة. تحول معظمها إلى ورش وعيادات ومحلات حلاقة وقهاوي بلدي. لا تلقى الحد الأدنى من العناية والصيانة اللازمة. ذاكرة تتآكل لبلد ينتحر.

حديقة الحيوان التي كانت تصنف من أجمل حدائق الحيوان في العالم، اقتطع جزء كبير من أرضها لبناء كلية الهندسة بكافة مساحاتها ومبانيها ومعاملها لتتقلص مساحتها من 80 فدان إلى 357 الف متر فقط. مع استمرار التدمير والتشويه للحديقة، تراجع التقدير العالمي لها، وأصبحت من أسوء حدائق الحيوان في العالم.

حديقة الأزبكية التي أنشأها المهندسون الفرنسيون، والتي كانت بها 800 شجرة نادرة وكشك للموسيقى الحية، تم اغتيال نضرتها وقتل نباتاتها وردم بركتها وتقليص مساحتها حتي لم يبق منها شئ الآن.

وتم تقسيم ميدان الأزبكية إلى أربعة أماكن. تضم حاليا مبنى البنك المركزي الجديد ومحطة بنزين وجراج الجمهورية ومبنيين لوزارة الشئون الإجتماعية والتأمين الصحي.

أما الحديقة نفسها، فقد قسمت وشيد على جزء منها سنترال الأوبرا، واخترقها شارع 26 يوليو فقسمها نصفان. فلم تعد حديقة وميدان الأزبكية كما كانت، وأصبحت ذكرا من هذا الزمن الجميل.

حديقة التحرير هي الأخرى تم تحويلها إلى مواقف أوتوبيسات. حديقة قصر محمد على بشبرا، والتي كانت تبلغ مساحتها 50 فدان، كانت تعتبر من روائع القاهرة ومن أندرها. فأين هي الآن؟ القصر نفسه من أندر القصور في العالم.

حديقة قصر الأمير محمد علي ابن الخديو توفيق، كانت حديقة عالمية الشهرة. وحديقة السيدة زينب، وحديقة ميدان الظاهر، وغابات

الدّراسة، وحديقة ضريح أحمد ماهر، وحدائق القبة، وحدائق المتحف الزراعي بالدقي، وحدائق بولاق. كل ذلك ذهب إلى غير رجعة وأصبح في خبر كان.

منذ سنتين تقريبا، كنت في زيارة القاهرة. نزلت إلى منطقة وسط البلد لقضاء بعض المصالح. شارع فؤاد وشارع سليمان ومنطقة الأزبكية. لم أصدق ما رأيت. الأرصفة منزوع بلاطها. كل محل، الرصيف أمامه يختلف عن الرصيف أمام المحل المجاور له. الطوب والظلط والرمال هنا وهناك.

ديكورات المحلات تنم عن ذوق ردئ وعشوائية قبيحة. اليفط واعلانات الأطباء تشوه البلكونات وجدران العمائر التي كانت تحفة للناظرين في يوم من الأيام. الشوارع قذرة والزبالة تتكوم في كل مكان. حتي الناس شكلها قد تغير وصار قبحا. وأصبحت لا تختلف كثيرا عن المكان الذي يعيشون فيه.

سينما كايرو أصبحت خرابة. سينما مترو تعرض أفلام عربية. منظر الإعلانات حولها ردئ مقزز. دور العرض التي كان يمتلكها إخوان جعفر بوسط البلد قبل التأميم، سينما ريفولي وراديو وأوبرا وقصر النيل، بمسارحها الجميلة وسجاجيدها الفاخرة وستائرها الحريرية المخملية المتعددة وديكوراتها الرائعة، أصبحت خرائب أو حوانيت رديئة المنظر.

تشويه وتخريب لكنوز لا يملكها جيل واحد، وإنما هي ملك لكل الأجيال. يجب أن نصونها ونعض عليها بالنواجز. جريمة بشعة مع سبق الإصرار

والترصد. لا يشفع فيها التذرع بحجة ما. سواء كانت حجة الفقر أو الجهل بمعنى الحياة والجمال. ولا يقبل فيها القول بعدم فهم أهمية الحضارة والثقافة والفنون الراقية في حياة الشعوب.

الفصل الحادي عشر

لازلت في مدينة القاهرة مع رحلة المدرسة في بداية عام 1952م، بعد حريق القاهرة مباشرة. كان أحد المدرسين المرافق للرحة يشير بيده من نافذة الأوتوبيس إلى بعض المحلات والأماكن التي لا تزال آثار الحريق بادية على واجهاتها. أذكر منها سينما مترو بشارع سليمان (طلعت حرب حاليا).

لم نكن نعرف وقتها سبب حريق القاهرة. الحريق كان يوم 26 يناير 1952م. خلال ساعات معدودة، التهم الحريق 700 مكان في شوارع وميادين وسط المدينة. محلات تجارية مثل شيكوريل وعمر أفندي وصالون فيردي، فنادق مثل شبرد ومتروبوليتان وفيكتوريا، دور عرض مثل مترو وراديو وريفولي وديانا وميامي، معارض للسيارت ومقاهي ومطاعم مثل جروبي والأمريكين، نواد اجتماعية،... إلخ. 26 قتيل و 552 جريح. جريمة بشعة، وخسارة فادحة لمدينة رائعة مثل القاهرة.

أصابع الإتهام كانت موجهة إلى الملك فاروق، ربما بسبب رغبته في إسقاط وزارة النحاس. كان الإتهام أيضا موجها إلى الإنجليز بهدف إعادة إحتلال القاهرة بعد أن ألغت وزارة الوفد معاهدة 1936م، قبل الحريق بعامين.

أيضا لم يسلم الإخوان المسلمون أو الشيوعيون من الإتهام بحرق القاهرة. حريق القاهرة كان هو أحد الأسباب التي عجلت بثورة يوليو 1952م.

ذهبنا بالأوتوبيس إلى حلوان لقضاء يوم كامل هناك. حلوان في ذلك الوقت، كانت ضاحية من ضواحي القاهرة الراقية على ضفاف النيل.

كان بمدرستنا في مدينة فاقوس مدرس تربية رياضية تم نقله حديثا إلى حلوان. لذلك ظل سائق الأوتوبيس الذي يقلنا يسير في شوارع حلوان باحثا عن المدرسة التي يوجد بها المدرس. هذا أعطانا فرصة لمشاهدة حي حلوان كله تقريبا.

لفت انتباهي جمال الفيلات والقصور التي تطل من أسوارها الحديدية زهور "الجهنميات" والفل والياسمين وأوراق الشجر. كان حي حلوان يبهر الألباب بنظافة شوارعه المزينة بالأشجار ذات السيقان البيضاء والزهور المعلقة بأعمدة الإنارة.

قمنا بزيارة متحف الشمع والعين الكبريتية والحديقة اليابانية. قضينا وقتا ممتعا لم يعكر صفوه سوى إكتشاف مدرسي الرحلة إختفاء تلميذين وقت العودة. أصيب القاضي أفندي وزميله بالهلع والرعب. ظلا يجريان هنا وهناك للبحث عن الطالبين المفقودين دون جدوى. عندما أعيتهم الحيل، ذهبا وهم في حالة يرثى لها للبلاغ في قسم الشرطة.

عند العودة إلى اللوكاندة، كانت المفاجة وجود التلميذين في انتظارنا. ماذا حدث، هو أنهما مرا بحالة خرمان مفاجئة، فإنتحيا مكانا قصيا لشرب سيجارتين هوليود خلسة. عندما عادا لم يجدا أوتوبيس الرحلة، الذي تحرك قبل أن يتنبه أحد لغيابهما.

قررا العودة وحدهما إلى اللوكاندة في القاهرة. النتيجة طبعا علقة ساخنة يتخللها الضرب بالشلاليل ولعن الجدود. مسؤولية ضياع تلميذين مسؤولية كبيرة بدون شك، تذكرنا بفيلم نور الشريف "آخر الرجال المحترمين".

حلوان كانت في الأصل مدينة فرعونية، بها سد مائي بمنطقة وادي حوف يرجع تاريخه إلى ما قبل عصر الأسرات. أعاد بناءها عبد العزيز بن مروان والي مصر في العصر الأموي.

يقول المقريزي أن الطاعون وقع بمصر، فخرج منها عبد العزيز ونزل بحلوان. أعجبته فسكنها وعمرها أحسن عمارة وغرس نخيلها وكرومها. ولم تزل العمارات تزداد مدة إقامته بها التي دامت خمسة عشر عاما.

في عام 1849م، أرسلت الحكومة في عهد عباس الأول بعض الجنود للإستشفاء بالمياة الكبريتية بحلوان. كان لنجاح التجربة، أثر عظيم في لفت الأنظار إلى عيون حلوان الكبريتية. من ثم بدأ الأوربيون والمصريون يتوافدون على المياة الكبريتية.

وفي عام 1868م، أمر الخديو إسماعيل ببناء حمام في موقع العيون الكبريتية. أثناء وضع الأساس، تم اكتشاف آثار حوض قديم يجمع أربعة عيون، يعتقد أنه الحمام الذي ذكره المقريزي في خططه.

في عام 1871م، تم افتتاح الحمام الجديد للإستفادة من المياة الكبريتية. سرعان ما تدفق الزوار المصريون والأجانب على العين بأعداد فاقت كل التوقعات. زاد في شهرة حلوان، تحسن صحة زوجة الخديو إسماعيل عند علاجها بالمياة الكبريتية. مما دعا الخديو إلى تحويل المنطقة إلى منتجع صحي سياحي.

في عهد الخديو توفيق، اهتم بصفة خاصة بحلوان. بني قصرا هناك، وبنيت معظم عمائر حلوان في عصره. من الشخصيات العالمية التي كانت تتردد على حلوان: الأمير ليوبولد الوصي على عرش بافاريا، وملكة النمسا والمجر، وملكة السويد، وأمير ويلز، واللورد كرومر حاكم مصر الفعلي أيام الإستعمار البريطاني.

في عام 1917م، أنشأ ذو الفقار باشا في حلوان الحديقة اليابانية. في عام 1934م، تم نقل متحف الشمع من القاهرة إليها. في عام 1939م، إنفجرت بها عين أخري طبيعية.

الحديقة اليابانية كانت تمتاز عن باقي الحدائق المصرية باحتوائها على مجموعة من تماثيل بوذا الشهيرة. من الأساطير المضحكة التي يطلقها أطفال حلوان على هذه التماثيل، هو أنها تمثل "على بابا والأربعين حرامي". جاءوا لسرقة مستشفي حلوان واختبأوا في الجنينة اليابانية. فسخطهم الله في صورة تماثيل. حتي يكونوا عبرة لأمثالهم من الحرامية.

الحديقة اليابانية كانت لها شهرة عالمية بسبب إقامتها على الطراز الياباني. لكن الحديقة عانت، كباقي حدائق مصر التاريخية، من التجاهل والإهمال، حتي وصلت إلى حالة يرثى لها. مما دعا حكومة اليابان إلى التدخل وعرض تجديد الحديقة على نفقتها في بداية التسعينات.

بعد الثورة، تحولت حلوان إلى مدينة صناعية. تم هدم الكثير من شواهدها وقصورها الخالدة. بعد أن كانت مدينة الرقي والجمال، ابتذلت وأصبحت مدينة التلوث والعشوائية والتيبس الصدري، بسبب مصانع الأسمنت والحديد والصلب والمصانع الحربية ومصنع النصر للسيارات.

بذلك أصبحت حلوان أكبر مناطق التلوث في العالم بدون منافس. ما الضرر في بناء المصانع بعيدا عن المنتجعات السياحية والكنوز التي ليس لها مثيل في العالم؟ لماذا لا تكون المصانع بعيدا عن المدن الآهلة بالسكان وفي عكس اتجاه هبوب الريح؟ عاوزين فهامة صلاح جاهين تفهمنا السبب.

في اليوم التالي، ذهبنا إلى ميدان الجيزة لكي نركب الترام الذي يسير بطول شارع الهرم حتى الأهرامات. ما أتذكره من شارع الهرم في ذلك

الوقت، هو خلوه من السيارات والمارة. أشجار على الجانبين وأراضي زراعية. لا كباريهات ولا عربات ولا ازدحام مروري أو اختناق.

كل ما رأيته في هذه الرحلة جديد ومبهر. لا تستطيع أن تستوعبه عقولنا المتواضعة. نحن تلاميذ الأرياف والمدن الصغيرة، قد أصابتنا القاهرة بجمالها وجلالها بالصدمة الحضارية. منظر الأهرامات من بعيد، والأصابع تشير إليها لا يمكن أن ينسى.

لحسن الحظ كان معنا مدرس تاريخ. لشرح ما يستغلق علينا من فهم. الهرم الأكبر طوله كذا وارتفاعه كذا وبه كم حجر وتم بناؤه في كام سنة. القاضي أفندي شغال وأنا عمال أبحلق في هذا البناء الجبار الذي لا يشبه شيئا رأيته من قبل.

قاطع أحد التلاميذ المدرس قائلا: "قدماء المصريين دول راحوا فين يا أفندي؟ انسخطوا؟". أجاب القاضي أفندي بعصبية: "إلهي ربنا يسخطك ويسخط الحمير اللي زيك. دول يا غبي جدودنا العظام". فأجاب التلميذ ببراءة: "أمال هم راحوا فين؟"

ليس هذا سؤال ساذج من صبي صغير. لكنه سؤال أسأله لنفسي مرارا وتكرارا. هم راحوا فين؟ هل نحن حقا أحفاد هؤلاء الناس؟ وهل العمال والمهندسون الذين قاموا ببناء الأهرامات، يمتون إلينا بصلة

القرابة ولو من بعيد؟ وهل المرأة المصرية بحليها وزينتها وعطرها وملابسها وآلاتها الموسيقية، تمت إلى المرأة المصرية الحالية بصلة قرابة من أي نوع؟

بني الشعب المصرى فى عصر المملكة القديمة الهرم الأكبر – هرم خوفو. لا يهمنا هنا الأسباب التى بني من أجلها, سواء لتخليد الملك أو لتشغيل العمالة الزائدة وقت الفيضان, كما يعتقد بعض العلماء. لكن الذى يهمنا هنا هو الدقة الشديدة والعناية الفائقة التى أستخدمت فى بنائه.

بنى الهرم الأكبر على قاعدة مسطحة أفقية ملساء, درجة الخطأ فى تسطيحها لا يتعدى أربعة أجزاء من الألف فى المائة. أو بالقياس العملي, ليس هناك خطأ على الإطلاق.

قاعدة الهرم على شكل مربع. يواجه كل ضلع من أضلاعه إحدى الجهات الأصلية, شرق وغرب وشمال وجنوب. الخطأ فى إتجاه ضلعي الشمال والجنوب يبلغ ثلاثة أجزاء من مائة جزء في المائة. الخطأ فى إتجاه ضلعي الشرق والغرب لا يتعدى تسعة أجزاء من مائة جزء فى المائة.

هل هناك دقة أشد من هذه؟ أحجار الهرم يبلغ وزنها ستة مليون وربع طن. هي كافية لعمل سور يحيط بفرنسا كلها. هذه الأحجار وضعت مع بعضها بدقة, بحيث لا يزيد سمك الفراغ الموجود بين حجرين عن خمس البوصة.

داخل الهرم توجد غرفة الملك. تحتها غرفة الملكة. غرفة الملك بها نافذتان أو ممران هوائيان. الأول يسمح بمرور الضوء الساقط من النجم القطبي مباشرة، حتى يضئ جثمان الملك فى رقاده الطويل على الدوام. لأن النجم القطبي ثابت فى مكانه فى السماء دون باقي النجوم التى تدور حوله.

من ثم، يظل جثمان الملك مضاء فى الليل أو النهار بصفة دائمة. أما النافذة الأخرى, فتقع جهة الجنوب. تسمح بمرور الضوء الساقط من نجم الشعرى اليماني, "سيرس"، الذى كان يمثل عند قدماء المصرين الإلهة إيزيس. لكي يضئ تابوت الملك مرة واحدة فقط كل عام. بذلك تستطيع روح الملك فى رقادها الأبدي، معرفة عدد السنين التى تمر.

كذلك وضعت الأهرامات الثلاثة فى أماكنها, ليس على خط مستقيم كما هو المتوقع, إنما فى شبه خط مستقيم لكي تمثل وضع النجوم الثلاثة التى تتوسط برج الجبار "أوريون" والذى يمثل الإله أوزوريس .

لماذا يهتم المصري القديم بالدقة المتناهية فى الصنع. ألا يكفي وضع الأحجار مع بعضها على شكل كومة ضخمة ترتفع قمتها نحو السماء. لماذا يهتم المصري القديم بالشكل الهرمي الذى تطابق أضلاعه الجهات الأصلية بدون خطأ يذكر, وأى سر فى ذلك؟

لماذا يهتم بأن تكون نسبة نصف محيط قاعدة الهرم إلى إرتفاعه قريبة من نسبة طول محيط الدائرة إلى قطرها والمعروفة لدينا بالقيمة "ط".

هل صحيح تم إختيار موقع الهرم لكي يكون مركز الكرة الأرضية, بمعنى أن خط الطول الذى يمر بالهرم يمر فى نفس الوقت بأكبر مساحة أرضية يمكن أن يمر بها خط طول آخر, وكذلك خط العرض الذى يمر بالهرم هو الآخر يمر بأكبر مساحة أرضية.

هل كان المصري القديم يعلم أن الأحجار الجيرية المستخدمة فى بناء الهرم, هى تراكمات بيولوجية من الأحياء الدقيقة التى كانت تعيش فى الماء منذ ملايين السنيين. أى أن كل ذرة في جسم الهرم كانت تنبض بالحياة فى يوم من الأيام, مثل رفاة الملك والملكة اللذان يرقدان داخله. أم كل هذا من قبيل المصادفة؟

ما هى علاقة الهرم بالشمس؟ عندما تشرق الشمس فى الأفق, تبدأ

أشعتها الذهبية فى تسلق وجه الهرم الشرقي، كأنها تصعد إلى السماء. عندما تبدأ فى الغروب, ترى شعاعها القرمزي يهبط الوجه الغربي للهرم إلى أن يختفي رع فى الأفق البعيد.

كيف وضعت هذه الأحجار مع بعضها بحيث لا يضغط ثقلها الرهيب على الغرف والنوافذ والممرات الموجودة داخل الهرم؟ كيف تتخيل ستة وربع مليون طن من الحجارة صنعت بمهارة الجواهرجي؟

هذه الدقة المتناهية لن نجدها فى أعمال البنائين والفنانين فى الزمن اللاحق, الذين إتهموا بالعجلة والتفاخر فى أعمالهم الفنية. نظرة سريعة إلى أعمدة الكرنك الضخمة أو إلى معبد أبوسنبل، تبين لنا كيف فقد المصري القديم فى الزمن اللاحق الدقة والعناية والصبر فى أعمالهم الفنية ,وإكتفوا بالضخامة والحجم.

نظرة أخرى إلى تمثال خفرع الموجود فى دار الآثار المصرية بالقاهرة والذي لا يضاهيه شئ, أو إلى تمثال منقرع وزوجته الموجود بمتحف بوسطن بالولايات المتحدة, توضح كيف كان الفنان والصانع فى المملكة القديمة.

إذا كانت دقة بناء الهرم تعتبر معجزة, فما بالك بعظمة الإدارة التى أستخدمت لتشغيل هذا الجيش الغفير من العاملين فى مشروع واحد,

لكي تجعلهم يعملون فى توافق وتجانس تامين دون تخبط أو تعارض في القرارات والأوامر.

القدرة على العمل الجماعي كانت من سمات أجدادنا قدماء المصريين. وهي سمة تظهر لحسن الحظ من حين لآخر. ظهرت عندما حفرنا قناة السويس، وعندما بنينا السد العالي، وعندما عبرنا إلى سيناء في حرب 1973م. وستظهر عندما نبني بلادنا من جديد على أسس صحيحة في القريب العاجل إن شاء اللّٰه.

إننا نخطئ عندما نظن , كما ظن هيرودوت من قبل, أن الهرم ماهو إلا قبر ضخم لملك ظالم سخر شعبه لبنائه. لأن الهرم فى الحقيقة هو معبد ديني, بني لأسباب دينية. مثل المساجد والكنائس العظيمة التى بنيت لنفس الغرض. إنه صرح رائع استخدم فى بنائه العلم والفن والإيمان والإخلاص والصبر والدقة، وفوق كل هذا الحب. لأن عربة الحضارة لا تجر بالعبيد, إنما تقاد دائما وأبدا بالأحرار.

الفصل الثاني عشر

فاروق الهندي كان أحد الأطفال التي تلعب معنا في الشارع. كانت له هواية غريبة لم أسمع عنها من قبل أو من بعد. كان يتسلل بالقرب من أي كلب أو قطة يجدها في طريقة، ثم يقبض على ذيلها بسرعة. يرفعها في الهواء ويظل يدور بها فاردا ذراعه الذي يحملها به. عندما يتركها، تسقط بعيدا عنه وتلوذ بالفرار وهي لا تدري ماذا حدث لها.

طفل آخر كان يربط في أحد رجليه حبل قصير ينتهي ببصلة كبيرة. يحرك الحبل لكي تدور البصلة حول رجله. عندما يمر الحبل برجله الأخرى، يقفذ من فوقه. الشطارة ألا تلمس رجله الحبل.

لعبة أخرى كنا نلعبها وكنت أحبها جدا، اسمها السبع طوبات. كنا نحفر سبع حفرات متجاورة بجوار الحائط وحفرة كبيرة مليئة بالحصى. كل منا له حفرة خاصة به بناء على قرعة معينة.

نقف على خط مستقيم على بعد معقول من الحفر. يدحرج كل منا عندما يأتي عليه الدور، كرة شراب لكي تسقط في أحد الحفر. من تسقط الكرة في حفرته، عليه أن يجري بسرعة نحو الحفر، ويلتقط الكرة ويقذفها في أحد اللاعبين. طبعا من لم تأت الكرة في حفرته، عليه أن يهرب بسرعة.

توضع حصاة في حفرة اللاعب الذي تصيبه الكرة. فإذا لم ينجح اللاعب في إصابة أحد، توضع حصاة في حفرته هو. اللاعب الذي يحصل على 7 طوبات هو اللاعب المهزوم. العقاب يكون بأن يقف المهزوم وظهره

للحائط، فاردا ذراعه وكفة إلى الحائط أيضا. ليتلقى ضربات الكرة سبع مرات، يصوبها اللاعبون إلى كفه كعقاب.

الجميل في هذه اللعبة، أنها تعلم الطفل اليقظة والترقب والحذر وأخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. أنت لا تستطيع أن تقترب من الحفر، لأنك في هذه الحالة ستكون هدفا سهلا تصوب إليه الكرة. ولا تستطيع أيضا أن تبتعد عن الحفر، إذ ربما تقع الكرة في حفرتك.

تقترب أو تبتعد، هذا قرارك ومسؤوليتك. لعبة تمتزج فيها الرياضة البدنية بالنشاط الذهني. يتدرب فيها الطفل منذ نعومة أظافره على تقدير المسافات وأخذ القرارات. بالإضافة إلى التريض في ضوء الشمس والهواء الطلق. العاب الكمبيوتر قد تكون مفيدة للعقل والذهن، لكنها مضرة للجسد والروح.

كانت توجد في شارعنا كلبة ليس لها صاحب. لكنها كانت صديقة لكل أطفال الشارع. مجرد أن تناديها باسمها "لَكي"، فتأتي مسرعة إليك. من نوع "المالينوس" الذكي جدا والوفي جدا والتي تستتخدم في رعي الماشية وخدمة الشرطة واقتفاء الأثر والمساعدة في البحث والإنقاذ.

نجري فتجري وراءنا. نلعب فتلعب معنا. نقف فتأتي لتحك جسمها بأجسامنا. توجد علامة في رقبتها تبدو بسبب خناقة مع كلب آخر. كل منا كان يعتبرها كلبته الوفية. نحضر لها الأكل من منازلنا فتحمله وتقف بجوار الحائط لتأكله وعيناها لا تفارقنا.

في يوم أسود حزين، وجدت أطفال الشارع تبكي. ماذا حدث؟ أجاب طفل ودموعه تسيل على خده: "واللّٰه لأموته العسكري ابن الكلب". لقد جاء العسكري المكلف بقتل الكلاب الضالة، ورمى كبابة سامة إلى الكلبة "لَكي". وظلت الكلبة تعاني من ألم السم وهي تسقط على الأرض، والأطفال حولها تبكي وتلطم وجوهها إلى أن فارقت الحياة.

لم تكن هذه أول مرة حزت فيها على فراق كلب أو حيوان أليف. كان لدينا كلبة أخرى جاءت هدية لوالدي عندما كنا نسكن في بيت له جنينة صغيرة. نشأت معنا منذ أن كانت جرو صغير، وكبرت وهي لا تعرف غيرنا.

عندما انتقل والدي من مدينة فاقوس للعمل في قرية من قري الشرقية، لم يكن هناك مكانا للكلبة في سكننا الجديد. عندما لم يجد بين أصدقائه من يقبل أن يأخذ كلبتنا، اضطر إلى تركها في الشارع. لم يستمع والدي إلى توسلاتي وبكائي. وكان يجيبني: "يا ابني مافيش مكان ليها معانا".

المشهد الذي لا أستطيع أن أنساه، كان عند زيارة والدي لمدينة فاقوس لشراء بعض الحاجات وكنت معه. بينما كنا في طريقنا لكي نركب الأوتوبيس للعودة. إذا بنا نفاجأ بكلبتنا تأتي لتلمس بجسدها ساق والدي كأنها تستسمحه لكي يعفو عنها ويأخذها ثانية إلى أسرتها التي لا تعرف غيرها.

حاول والدي طردها وابعادها عنا دون جدوى. وأنا أبكي وأتوسل له أن يأخذها معه. لكنه كان يردد مقولته بأن لا مكان لها في بيتنا الصغير الجديد.

ذهبنا إلى موقف الأوتوبيس وهي خلفنا لا تريد مفارقتنا. جاء الأوتوبيس وركبنا. نظرت من نافذة الأوتوبيس فوجدتها تنظر لي كأنها تسترحمني لكي آخذها معنا. تحرك الأوتوبيس، فوجدتها تجري خلفه. ظللت أراقبها وهي تجري خلف الأوتوبيس إلى أن اختفت في الأفق البعيد وأنا لا أكف عن البكاء.

الكلب يتفوق عن الإنسان بميزتين. حاسة الشم وطبع الوفاء. القصة التالية تأتينا من اليابان. الأستاذ "اوينو" بجامعة طوكيو كان له كلب يسمى "هاجيكو". يرافق الكلب البروفيسور إلى محطة القطار في الصباح الباكر، وينتظر عودته وقت العصر كل يوم.

أثناء وجود البروفيسور بالجامعة، تعرض لأزمة قلبية أودت بحياته. لكن الكلب "هاجيتو" ظل ينتظر صاحبه الذي لن يعود بالمحطة، لا يريد مغادرتها.

لاحظ الناس استمرار وجود الكلب بالمحطة وعرفوا قصته. راح الكثير منهم يطعمونه. سمح مدير المحطة ببقائه وخصص له مكانا للمبيت، عندما تيقن أنه لا يؤذي الناس. بادر أحد طلاب البروفيسور المتوفي بأخذ الكلب والإعتناء به. لكن الكلب ظل على وفائه لصاحبه البروفيسور، بالذهاب إلى المحطة لإنتظار عودته وقت العصر من كل يوم.

ظل الكلب على هذا الحال مدة عشر سنوات متواصلة. في عام 1935م، وجد الكلب "هاجيكو" ميتا عند المحطة في المكان الذي تعود انتظار صاحبه فيه. لذلك، أمرت الحكومة اليابانية بتحنيط جثة الكلب وحفظها في المتحف الوطني للعلوم في طوكيو.

نحن الآن في عام 1952م، وأنا في الشهادة الإبتدائية. حتى يطمئن والدي على درجة تحصيلي ومستواي التعليمي، طلب من "قطب أفندي" المدرس بالمدرسة الإلزامية إختباري في الحساب واللغة العربية.

أخذني قطب أفندي وانتحى جانبا في الشونة. جلسنا فوق كرسيين متقابلين وقت الظهيرة. فرد قطب أفندي شمسيته فوق رأسه وبادرني بالسؤال: "هات ياء مخاطبة تعرب نائب فاعل".

نظرت إلى رباطة عنقه القصيرة وعقدتها الكبيرة جدا وطربوشه الأحمر الزاهي، ثم تبسمت بدون إجابة. بادرني بسؤال آخر لا أذكره، فأجبته بإبتسامة وصمت أيضا. هو يسأل وأنا أبتسم وعيناي مثبتتان على عقدة رباطة عنقه الكبيرة. فجأة، جاءت صفعة مدوية على وجهي، دارت لها عيناي فاغرورقا بالدموع. وجاء صوت قطب أفندي: "انت بتضحك على إيه، على خيبتك؟"

ذهب قطب أفندي إلى والدي لكي يزف إليه الأخبار الغير سارة. "ابنك يا توفيق أفندي لن ينجح في إمتحان الإبتدائية". طيب والعمل يا قطب أفندي؟ الولد لعبي جدا ولا يذاكر دروسه أبدا. كان الحل هو الدرس الخصوصي.

لحسن الحظ كان باقي على الإمتحان مدة كافية للإستعداد له. وكان ابن ناظر المدرسة الإلزامية التي يدرس بها قطب أفندي معي في الفصل ويستعد هو أيضا لإمتحان الإبتدائية. لقد كان قطب أفندي نجدة من السماء لإنقاذ مستقبلنا، أنا وابن الناظر.

قطب أفندي، بالرغم من طربوشه فاقع اللون ورباطة عنقة الغريبة وحلته الغير مكوية، إلا أنه كان عبقريا في تدريس قواعد اللغة العربية والحساب. فهو من خريجي المدارس الأزهرية. يحفظ القرآن وألفية ابن مالك.

كانت طريقته في التدريس هو أن نذهب أنا وابن الناظر إلى المدرسة الإلزامية كل يوم بعد الدراسة حتى أيام الجمع والأجازات الرسمية. يقوم قطب أفندي بالشرح. ثم نقوم نحن بحل كل التمارين الموجودة في كتاب الوزارة من الجلدة للجلدة. ما في مسألة واحدة أو سؤال واحد يمر علينا دون حل أو إجابة. كانت أجرته جنيها واحدا في الشهر.

طبعا أهملت المواد الأخرى واللغة الإنجليزية. مدرس اللغة الإنجليزية في الفصل كان يشرح لتلميذين أو ثلاثة ولا يهتم بباقي التلاميذ. الفصل كان مزدحما فوق العادة.

أخبرني صديقي ابن الناظر، الذي كنت أذاكر معه، أن والده قد حصل على نتيجة الإبتدائية من الكنترول قبل أن تذاع رسميا. أخبرني أنه قد نجح وحصل على شهادة الإبتدائية. فطلبت منه أن يكشف على اسمي أيضا.

ذهبت أنا وهو للبحث عن والده. جلست على الرصيف وانتظرته لكي يأتي بنتيجتي من والده، الذي كان يزور أحد الجيران. دخل منزل الجار. بعد فترة قصيرة بدت لي كأنها دهر طويل، خرج زميلي يجر رجليه ويخطو خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الخلف.

نظرت إليه وأنا أخط في الرمال بعصا وجدتها بجواري. وقلت لنفسي، هذه المشية ليس ورءها خير أبدا. اقترب مني وزف لي البشري الغير سارة: "اسمك غير موجود بالكشف". فقلت له يعني إيه، ساقط؟ فقال: للأسف آه".

هذه أول مرة في حياتي أشعر بمرارة الرسوب في الإمتحان. أو بمرارة الفشل بصفة عامة. عندما ذهبت مع والدي للمدرسة لمعرفة لماذا رسبت. تعجب مدرسي المدرسة الذين كانوا موجودين وقتها من حصولي على النمرة النهائية في الحساب ونمرة عالية جدا في العربي.

سبب رسوبي كان اللغة الإنجليزية. هدأ والدي عندما علم أن فرصة نجاحي في الملحق كبيرة. وقد كان. فبعد فترة قصيرة نجحت في الملحق بمساعدة مدرس خصوصي. لكن مرارة الرسوب لا تزال في حلقي حتى الآن.

ظللت طول عمري أكره شيئا اسمه الإمتحان. عندما يكون لدي امتحان، لا استطيع النوم أو الأكل أو الحياة الطبيعية. كم تمنيت لو تكتشف البشرية شيئا أفضل من نظام الإمتحانات المعمول به في كل مكان.

كان يدرس لي في معهد كورانت بمدينة نيويورك البروفيسور "بيتر" مادة الأوتوماتا. معهد كورانت انشأه العلماء الألمان بعد هروبهم من ألمانيا النازية، والعلماء الإيطاليون بعد هروبهم من حكم موسوليني. تم فيه مشروع مانهاتن لبناء القنبلة الذرية، ويعتبر من أعظم المعاهد التي تدرس فيها الرياضيات التطبيقية في العالم.

كان البروفيسور بيتر يعطينا بحثا في نهاية كل محاضرة. في نهاية "التيرم"، لا يوجد امتحان نهائي. درجت الطالب هي مجموع درجات أبحاثه مدة "التيرم".

بروفيسور آخر، لا أذكر اسمه، كان يدرس لنا مادة الإحتمالات في الإحصاء الرياضي. وكان يعطينا الإمتحان النهائي ويطلب منا أن نذهب إلى بيوتنا ونختار الوقت المناسب. ثم نبدأ في إجابة الإمتحان في وقت لا يزيد عن ساعتين.

بعد ذلك، نأخذ ورقة الإجابة ونرسلها له بالبريد للحصول على الدرجة النهائية. وكان من رأيه، إذا كان هدفك الحصول على الدرجة والنجاح فمكانك ليس هنا. الدراسات العليا في معهد مثل معهد كورانت، يجب أن تكون لمن يطلب العلم، لا لمن يطلب الشهادات.

أنا من رأيي أن فشل التعليم، سببه هو أننا ربطناه بالنجاح والدرجة العلمية والشهادة. لنتخيل أننا انشأنا مدارس وجامعات ليست بها إمتحانات ولا تعطي شهادات.

الطالب الذي يبغي شهادة فقط، لن يلتحق بهذه المؤسسات التعليمية. بذلك يكون قد أراح واستراح. أما الطالب الذي يبغي العلم حقيقة، فهو الذي سوف يحرص على الحضور والفهم. وهذا ما نريده.

من تجاربي الشخصية، إذا كانت الدراسة في ظل الإمتحانات والنجاح والرسوب، فهي تسبب ضغوطا نفسية شديدة الوطأة وشللا مريعا لقدرات العقل الجبارة. هل سمعت عن طالب ابتكر أثناء دراسته الثانوية أو الجامعية شيئا ذا قيمة؟ الإكتشافات والإبتكارات تأتي دائما من أناس خارج نظام التعليم الكلاسيكي الذي يستخدم الإمتحانات والشهادات.

يذهب التلميذ إلى المدرسة وهو في براءة الحمل الوديع. يتخرج منها وهو خبير تذوير وأستاذ في الكذب والنفاق. كان لي صديق يذهب للإمتحان وهو ملغم بالبرشام في كل جيوبه وداخل قميصه وحذائه وكل مكان في جسمه يستطيع أن يضع فيه برشامة.

ثم يقوم بعمل خريطة تبين موقع كل برشامة حسب الموضوع. هل مثل هذا الطالب ينشد العلم؟ وهل نأسف عليه إذا لم يحصل على شهادة؟

الولايات المتحدة لا تعترف بالشهادات ضمنيا. إذا خلت وظيفة في شركة كمبيوتر مثلا، وتقدم للوظيفة شخص يحمل شهادة الدكتوراة في الكمبيوتر وشخص آخر لا يحمل من الشهادات سوى الثانوية العامة، لكن لديه خبرة عملية لازمة للوظيفة، فمن منهما تقوم الشركة بتعيينه؟

صاحب الخبرة الحاصل على الثانوية العامة. لماذا؟ لأننا نبحث هنا عن العلم لا عن الشهادة.

في بلادنا، كيف نفطم الطالب عن طلب الشهادة ونجعله يطلب العلم لذات العلم؟ هذا هو التحدي الكبير الذي، لو نجحنا فيه، يجعلنا نسود باقى الأمم.

لا أعتقد أن قدماء المصريين كان لديهم نظام الشهادات. وبالرغم من ذلك برعوا في كل شئ واخترعوا تقريبا أهم الإختراعات التي عرفتها البشرية.

إذا لم يكن من السهل إلغاء الشهادات بالمرة، فعلى الأقل يجب ربطها بطلب العلم. ويجب تحبيب الطالب منذ نعومة أظافره في العلم لا في الشهادة فقط. التلميذ يأتي إلى الفصل لكي يتعلم. هذه رغبة صادقة.

لقد عشت معظم عمري داخل الفصول سواء كتلميذ أو مدرس. وأعرف جيدا ما أقول. التلميذ يريد أن يتعلم. ولكن، هل نساعده على تحقيق هذه الرغبة؟

أعرف بعض التلاميذ، بسبب طريقة التدريس الخاطئة والمناهج الغبية والكتب الرديئة، يتمنى أن يترك المدرسة اليوم قبل الغد، ويذهب لكي يشتغل سواق بيجو أو عامل في طابونة.

التعليم فى بلادنا يعتمد على الحفظ والتسميع بدون فهم. اجهاد للذاكرة, وشلل للقدرة التفكيرية, وقتل لملكات العقل التحليلية. لقد كنت

اتساءل فى صباي عن جدوى تدريس نظرية تطابق المثلثات وما شابهها من نظريات فى الهندسة المستوية(الإقليدية) فى سن مبكرة.

يأتى الجواب لأن تدريب التلاميذ فى سن مبكرة على نظريات الهندسة المستوية وعلى حل تمارينها, هو خير وسيلة لتدريب العقول على التفكير المنطقي. إذا لم يكن تفكيرك فى تسلسل منطقي ومنظم, فلن تستطيع برهان شئ, أو حل أي تمرين هندسي, أو كسب أي قضية, أو الوصول إلى أي حقيقة.

تدريب العقول منذ نعومة أظافرها على التفكير المنطقي, هو الذى ينهض بشعوبنا ويحل مشاكلنا الإجتماعية والسياسية والإقتصادية.

الهدف بناء عقول قادرة, وليس عقول حافظة لمعلومات مكدسة لا يربطها رابط. عقول فاهمة, وليس عقول تحمل شهادات وأجازات بدون فهم. مثل الحمار الذى يحمل أسفارا, ولكنه لايعلم ما بها من معرفة.

معظم المدرسين غير أكفاء لهذه المهنة الجليلة. منهم من يقوم بصب المواد فى عقول الطلبة صبا. وكأنك تصب سائل فى قمع دون روية, ودون مراعات درجة إستيعاب كل طالب على حدة. ومنهم من يقف حجر عثرة فى طريق الفهم والتحصيل. ومن يسبب بأسلوبه وغبائه كره الطلبة لمادته ولعملية التعليم برمتها.

هل نعلم أولادنا القدرة على النقد؟ والقدرة على التمييز بين الحقائق والخرافات؟ ومعرفة أى ريح تدفع شراع المركب إلى الأمام أو الخلف؟

هل نعلمهم أن التجربة المعملية يمكن أن تثبت عدم صحة نظرية ما، لكنها لا تستطيع إثبات صحتها بصفة مطلقة.

هل نضع أمامهم المواضيع والقضايا بأوجهها المختلفة كما هى, حتى يختاروا بأنفسهم إذا إستطاعوا؟ وإن لم يستطيعوا, هل نعلمهم القدرة على الشك؟ لأن الأغبياء فقط هم الواثقون والمتأكدون والمدافعون حتى الموت عن أول فكرة أو قضية تواجههم فى حياتهم. كما قال دانتى:" الشك يسرني كما تسرني المعرفة".

التعليم هو أهم قضية تواجه أي شعب، فأرجوا أن يقتنع بذلك من بيدهم الأمر قبل فوات الأوان.

الفصل الثالث عشر

المنزل الذي كنا نسكن به في نهاية الأربعينات وأوائل الخمسينات يمتلكه الشيخ محمد الثقيل. رجل ربعة أحمر الوجه في الستينات من العمر، يعيش هو وزوجته كبيرة السن في منزل قديم من اللبن في ظهر منزلنا. بين المنزلين باب خشب قديم يفتح من جهتنا على حوش صغير ومن الجهة الأخرى على صالة كبيرة أرضها ترابية.

من حين لآخر، كان الباب المشترك هذا يفتح وتجتمع والدتي وزوجة الشيخ محمد لتبادل الحديث أو لدفع الثلاثة جنيهات قيمة الإيجار الشهري. كانت والدتي تستخدم الفرن البلدي الموجود عند صاحبة البيت في بعض المناسبات لخبز العيش أو لعمل الفطائر والكحك والبسكويت.

توطدت العلاقة بين والدتي والسيدة صاحبة البيت، ونمت بينهما صداقة جوار متينة. عندما علمت السيدة أن والدتي تشتكي من آلام الكلية، أخبرتها بأن لها أخت تعيش في القاهرة سوف تقوم بزيارتها قريبا.

هذه الأخت لها قدرة خارقة لا تتوفر لأحد منا. فهي تستطيع أن تقوم بتحضير روح الشيخ زيدان المتوفي منذ قرون مضت. كان والدها يقوم هو أيضا بتحضير روح الشيخ زيدان.

قبل أن يموت الأب، طلب من الشيخ زيدان أن يحضر عندما تطلبه ابنته في أي وقت. علاقة الأب بالشيخ زيدان بدأت عندما كان الأب يعيش

في السعودية في العشرينات، واستمرت هذه العلاقة بعد أن عاد إلى مصر.

من القصص التي سمعتها والدتي عن الشيخ زيدان، أنه كان يتدخل في شؤون والد السيدة الزائرة في بعض الأحيان. فمثلا، قام بإخفاء عمامة الأب عندما تشاجر مع زوجته وقرر ترك البيت غاضبا. وفي مرة أخري، انتزع أحد الأبناء من تحت عجلات عربة مسرعة كادت أن تقتله، فلم يصب بسوء، وقصص أخرى لا أذكرها.

أخبرت والدتي والدي بحكاية الأخت القادمة من القاهرة وروح الشيخ زيدان التي تأتي طوعا بمجرد الطلب من الأخت. لكن والدي لم يصدق هذه الخرافات وظل يتهكم رافضا بتاتا فكرة تحضير الأرواح من أساسها.

بعد مدة قصير، حضرت الأخت من القاهرة. طلبت السيدة صاحبة المنزل من والدتي الحضور لسؤال روح الشيخ زيدان عن آلام الكلية وطلب الدعاء لها بالشفاء. وحيث أن والدتي كانت خائفة جدا لأنها لم يسبق لها أن حضرت جلسة تحضير أرواح من قبل، ولأن والدي لم يكن موجودا حتى يرافقها، لذلك لم يكن أمامها سوى أخذي معها.

كان عمري في ذلك الوقت لا يزيد عن عشر سنوات، ولكنني أذكر ذلك اليوم جيدا. الوقت كان ظهرا. دخلت أنا ووالدتي من الباب المشترك إلى منزل الشيخ محمد الثقيل صاحب البيت. خلعنا أحذيتنا وجلسنا على حصيرة على الأرض الترابية. وكان يجلس أمامنا على الحصيرة أيضا

الشيخ محمد بملابسه البيضاء وعمامته. بجواره زوجته ثم أخت زوجته القادمة من القاهرة.

أشعل الشيخ محمد النار في أحد المواقد الفخارية أمامنا ثم فتح كيسا صغيرا وأخذ منه بين أطراف أصابعه قليلا من البخور الناشف، ووضعه فوق الجمر في الموقد. فتصاعد الدخان حتي ملأ الصالة، والشيخ محمد لا يكف عن قراءة القرآن والأدعية. السيدة التي من المفروض أنها وحدها القادرة على تحضير الروح لم تنبث بكلمة واحدة.

فجأة وإذا بصوت قوي جلي يأتي من أركان الصالة الأربعة في وقت واحد. يقول بلهجة العرب البدو: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته". يمكن تصنيف الصوت من درجة "التنور"، وهو أحدّ الأصوات الرجالي.

شعرت بيد والدتي تمسك بيدي وتضغط عليها من الخوف. ظل الشيخ محمد يتحدث مع الروح ويلقي إليها بعض الأسئلة التي لا أذكر منها شيئا، والروح تجيب بقوة ووضوح. وحين تشجعت والدتي لمخاطبة الروح، قالت: "إزيك يا عم الشيخ زيدان وإزاي صحتك؟". فقالت الروح بتهكم: "صحتي إيه يا إبنتي، أنا مت منذ زمن طويل. إزي صحتكم أنتم؟".

لا أذكر من باقي الحديث سوى اسئلة ساذجة من والدتي مثل: "لماذا لا تذهب إلى بيت العائلة في البلد؟" لكنني للأسف لا أذكر أيضا الإجابة على هذا السؤال. في نهاية الجلسة، إنصرفت روح الشيخ زيدان من المجلس، ولكنها لم تنصرف من عقلي حتى اليوم، وأظنها لن تنصرف طالما أنا بقواي العقلية.

لم يصدق والدي ما حدث. وظل يرفض تصديق عملية تحضير الأرواح جملة وتفصيلا. إزاء إصراره على الرفض، طلبت والدتي من صديقتها السيدة صاحبة المنزل أن تدعوه لحضور جلسة قادمة. وقد كان. منذ ذلك الوقت، ووالدي لا يقسم إلا بكرامات الشيخ زيدان وسره الباتع.

مشكلتي مع هذه الحكاية، أنها لا تتفق مع طبيعة تفكيري بالمرة. لقد اكتشفت منذ نعومة أظافري أن تفكيري عقلاني. يبدو أنها عملية وراثية عن جدي. لا أجد صعوبة مطلقا في فهم نظريات الهندسة الإقليدية أو باقي فروع الرياضيات. لكن أجد صعوبة بالغة في قبول أي شئ لا يقبله العقل.

ثم تأتي هذه الحكاية لكي تسبب لي ارباكا فكريا لا استطيع السيطرة عليه. ماذا حدث؟ هل قصة الشيخ زيدان حقيقية؟ ربما كانت العملية لا تخرج عن كونها خدعة تقوم بها السيدة واختها.

لكن لماذا؟ ما مصلحة هذه السيدة في خداع والدتي، إذا كانت لا تتقاضى أى أجر مادي أو معنوي؟ وما يدفع الشيخ محمد الثقيل وهو رجل صالح حاج بيت الله على الكذب والخداع؟ وكيف جاء الصوت قويا من أركان الصالة بدون ميكروفونات أو كهرباء؟ هذا يضحد فكرة قدرة السيدة على التحدث من الباطن كما كان يفعل الكهنة في قديم الزمان.

فى الستينات ذهب الأستاذ أنيس منصور إلى أندونيسيا وجاء منها بهوجة تحضير الأرواح بإستخدام السلة. ثم تطور إلى إستخدام الفنجال.

ولم يسلم منزل منها أو أسرة. فالكل قد إنتابته نوبة تحضير الأرواح هذه. محاولا إستحضار أرواح موتاه وسؤالهم: هل هم فى الجنة أم فى النار؟ أو سؤال الأرواح عن المستقبل والمخبي.

لقد سمعنا أن مسئولين كبار كانت تحضر الأرواح لسؤالها, متى ننتصر على إسرائيل(محمد حسنين هيكل فى الأهرام فى السبعينات)؟ وكان ضباط الشرطة والمباحث فى ذلك الوقت, تبحث عن المسروقات والجناة بسؤال الأرواح, هذا ما قد شاهدته بنفسي. وإزدهرت جمعية تحضير الأرواح التى كان يرأسها الأستاذ فهمي أبو الخير ثم الدكتور على عبد الجليل راضي المدرس بكلية العلوم جامعة عين شمس فى ذلك الوقت.

ذهبت أنا وبعض زملاء الجامعة إلى جمعية الأهرام لتحضير الأرواح، والتي كان يرأسها الدكتور راضي. وهو أيضا كان أستاذنا الذي يدرس لنا مادة الحرارة كجزء من الفيزياء في كلية العلوم في نفس الوقت.

عندما وصلنا للجمعية، أخبرنا رئيس الجمعية الدكتور على أن اليوم هو يوم علاج بالأرواح وليس يوم تحضير الأرواح. وسألنا عما إذا كنا نرغب في تحضير جلسة علاج.

جمعية الأهرام لتحضير الأرواح في الستينات كانت تقع في شارع متفرع من شارع القصر العيني. تشغل الجمعية شقة صغيرة. جلسنا في الصالة وأمامنا صف كراس خشب ماركة "العفي". جلس عليها أربع مرضى يطلبون العلاج.

جات الأخت صفصف الوسيطة وهي من الجمعية. نحيفة قصيرة في الثلاثينات من عمرها وتلبس ملابس حشمة وطرحة بيضاء. أخذت تلمس بأصابعها جبهة وشعر وأكتاف المريض الأول وهي تهمهم بكلمات غير مسموعة لم أستطع تبينها. ثم انتقلت إلى المريض الثاني والثالث وفعلت بهما مثل فعلها بالمريض الأول. لكن لم يحدث شئ.

انتقلت الأخت صفصف إلى المريض الرابع وأخذت تلمس بأصابعها جبهته وترقيه كما فعلت مع المرضى الثلاثة الأول. وفجأة وبدون مقدمات، بدأت أنفاث المريض تتسارع وبدأ ينهج ويجد صعوبة بالغة في التنفث. ثم وقف وأخذ يصرخ بأعلى صوته والأخت صفصف تلاحقه بأناملها على جبهته وهى تقول أخرج من اصبعه وهو يزداد صراخا وتشنجا، وهي تصر على طلب الخروج من اصبع الرجل.

نحن نجلس مرعوبين نشاهد هذا المشهد الغير مألوف، ولا نفهم ما يدور أمامنا. بعد ذلك جاء الدكتور راضي، وطلب من الأخت صفصف الهوينا وانهاء الجلسة، وتكرار المحاولة في مرات قادمة.

كانت صفصف تأمر الروح الشريرة التي تتلبس المريض بالخروج من جسده، والروح تقاوم هذا الأمر. هكذا أخبرنا رئيس الجمعية الدكتور راضي. وعلمنا فيما بعد، إن عملية تحضير الأرواح سيطرت على عقله وتفكيره عندما كان يدرس الدكتوراه في إنجلترا. حيث وجد جمعية لتحضير الأرواح هناك.

بدأ الدكتور علي عبد الجليل راضي اهتمامه بالأرواح منذ ذلك الوقت. وكان يقول أن لديه لوحة زيته. عندما تتغير ألوانها، فهذا يعني أن خطبا

جللا على وشك الحدوث. عند وفاة والدته، رأى الدكتور راضي الألوان في اللوحة غامقة كئيبة حزينة على غير عادتها. وهو يعتقد أن السر يرجع لفعل بعض الأرواح. هذه القصة قد سمعتها من الدكتور راضي نفسه مباشرة.

تجربتي الشخصية بالنسبة لموضوع تحضير الأرواح هذا, تتلخص فى أننى كنت أعتقد فى صحتها فى البداية. لكنني لاحظت عندما كنت أحمل السلة مع رفاقي ونحضر روح أحد الموتى. ثم نسأله عن أشياء لا يعرفها غيرنا, كانت تجيب الأرواح بدقة وصواب مذهل.

لكن، عندما نسأل الروح عن أشياء لا أحد من حاملي السلة يعرفها, كانت تخفق فى الإجابة. وحيث أنني أحمل عقلا تحليليا, ولا أدري هل هذه نعمة أم نقمة؟ حاولت ربط الإجابات الصحيحة التى أعرفها ولا يعرفها غيري بحركة السلة. فوجدت أنني من حيث لا أدري أقوم بتحريك السلة لا شعوريا. ووجدت أن عقلي الباطن هو الذي يحرك السلة وليست الأرواح.

علم النفس الحديث وما نعرفه عن الأمراض النفسية والشيزوفرينيا وأمراض انفصام الشخصية وأبحاث الدكتور كارل ينج، عالم النفس السويسري، الخاصة بالعقل الباطن والطراز البدائي للعقل، وتجاربه على الإنسان البدائي في أحراش أفريقيا، تفسر لنا ما كانت تفعله الأخت صفصف.

أما موضوع الأرواح، فهي قد صعدت إلى بارئها ولا تريد أن تعود إلى عالمنا الأرضي هذا. لا بسلة أو فنجان أو خلافه. إننا لازلنا نجهل الكثير

عن عقل الإنسان. وبسبب جهلنا هذا، لا نستطيع تفسير أشياء كثيرة تحدث في حياتنا. فمثلا، الأحلام التي تتحقق، وقراءة الفنجال التي تصدق، والتخاطب عن بعد، وقوة الإعتقاد، والتنبؤ بالمستقبل، وغيرها من الظواهر التي لا نجد تفسير لها.

مثل هذه الأمور الغريبة، والتي ليس لها تفسير، يبحثها علم جديد يسمى "باراسيكولوجي". تقوم بعض الجامعات الكبيرة بتدريسه ضمن برامجها الأكاديمية.

دفعني الفضول إلى حضور محاضرات في هذا العلم في أحد جامعات بلدية نيويورك. كانت الأستاذة سيدة متخصصه في هذا العلم. وكانت أثناء المحاضرات تجمع قصص من الطلبة عن أشياء خارقة تحدث لهم أو لمعارفهم.

سمعت من أحد الطالبات عن أشياء تختفي من منزلها بدون سبب. وطالب آخر يقول أن النيران كانت تشتعل بدون سبب أيضا. وسمعت عن أرواح تتجسد في صور الحيوانات أو البشر. وانتهزت هذه الفرصة لسؤال الأستاذة عن تجربتي مع الشيخ زيدان. فوجدتها تصغي لي بإهتمام بالغ. ثم طلبت مني احضار السيدة التي تقوم بتحضير روح الشيخ زيدان.

عندما علمت أنها حكاية حدثت منذ زمن طويل في أوائل الخمسينات، أخبرتني بأنها لم تسمع مثل هذه القصة من قبل. ووعدتني أنها سوف ترسلها إلى كل أقسام الباراسيكلوجي في الجامعات التي تعرفها لطلب تفسيرا لها.

غرابة قصة الشيخ زيدان بالنسبة لعلم الباراسيكولوجي هي أن الروح تتجسم في شكل صوت قوي واضح. الذي يعرفه دارسي الباراسيكولوجي هو تجسد الروح في شكل طيف باهت أو هالة من النور أو شكل من الأشكال. لكن أن تتجسد الروح في شكل موجات صوتية، فهذا غير معروف لهم.

تفسير علماء الباراسيكولوجي للروح، هي مجرد طاقة تصدر من عقل الوسيط الذي يقوم بتحضيرها. لذلك لا تأتي الأرواح بدون وسيط. عقل الإنسان يعمل بالكيمياء وفصل الأيونات عن بعضها لتوليد الكهرباء.

كمية الكهرباء الموجودة في عقل الإنسان تكفي لصعق فيل كبير الحجم. سمك الثعبان الذي يعيش في أنهار أمريكا الجنوبية، يقوم باصطياد فريسته عن طريق تجميع الكهرباء الموجوده في رأسه وتفريغها مرة واحدة في جسم ضحيته.

الكهرباء طاقة. إذا وجدت المجال المناسب، يمكن أن تسير بسرعة الضوء. ويمكن لها أن تولد مجالات وموجات كهرومغناطيسية، مثل الضوء وموجات الراديو والأشعة السينية والميكروويف وغيرها من الأشعة. كلها طاقات متنوعة يمكن توليدها من الكهرباء.

هل الشيخ زيدان ما هو إلا موجات صوتية تأتي من العقل الباطن للسيدة القاهرية أخت صاحبة البيت؟ أم هو روح لشيخ من الحجاز توفي منذ عدة قرون، يأتي عندما تطلبه السيدة أخت صاحبة البيت؟ أقول لك بصراحة، أنني لا أعرف الإجابة المؤكدة على هذا السؤال.

الفصل الرابع عشر

كنت ألعب على الرصيف وقت الغروب. جاء والدي عائدا إلى البيت، فجريت نحوه أسأله: هل صحيح يا والدي الملك نزل من على كرسي العرش؟ أجاب مبتسما: نعم، نزل من على كرسي العرش وجلس على الأرض.

منذ شهور وأنا أسمع صدى الأخبار في الراديو. الناس تتجمع لسماع الأخبار الخاصة بتغيير الوزارات المتلاحقة باهتمام بالغ. ولمدة أيام عديدة، كنت أسمع، ولأول مرة، عبارات مثل أزمة نادي الضباط واللواء محمد نجيب والضباط الأحرار، وأنا في هذه السن، لا أفهم ماذا يدور في هذا البلد.

بعد ذلك، كان راديو دكان البقالة أمام منزلنا يذيع كل ليلة بعد نشرة الأخبار الأخيرة أغنية أم كلثوم من شعر حافظ إبراهيم: "مصر تتحدث عن نفسها" حتي حفظتها من كثرة تكرارها. خصوصا مقطعها الأخير الذي يناسب كل ثورة، وخصوصا ثورة 25 يناير العظيمة، الذي يقول:

قد وعدت العلا بكل أبي، من رجالي فانجزوا اليوم وعدي

وارفعوا دولتي على العلم والأخلاق، فالعلم وحده ليس يجدي

نحن نجتاز موقفاً تعثر الآراء، فيه وعثرة الرأي تردي

فقفوا فيه وقفة حزم، وارسوا جانبيه بعزمة المستعد

سعيد الوزيري كان زميلي في المدرسة الإبتدائية بمدينة فاقوس. يسكن بالقرب من منزلنا في منزل قديم أرضي، مع والدته ووالده وأخويه الكبار. يعمل والده في محل الصباغ التجاري.

في يومين أو ثلاثة من كل أسبوع، يأخذ والده، وكان نحيفا عجوزا، بقجته ويفرشها في الأسواق المجاورة لكي يبيع ما فيها من بضاعة تلزم الفلاحين.

الأخ الأكبر متزوج، كان يعمل مع والده في دكان الصباغ. يسكن مستقلا هو وزوجته، ثم استأجر محل خردوات في الشارع الرئيسي أمام محل الباشا بائع الطرابيش.

الأخ الثاني كان يكبرنا أيضا، يدرس في مدرسة المعلمين المتوسطة لكي يصبح مدرس ابتدائي. الأم كانت سيدة كبيرة السن ممتلئة القوام. كريمة جدا، وكلما كنت أزور ابنها في منزلها، كانت لا تبخل علينا بما عندها من أكل أو حلويات.

كان معنا في المدرسة تلميذا من الكفور أو النجوع القريبة من مدينة فاقوس. لا أذكر اسمه الآن. ظل يرجونا ويلح في الرجاء لكي نزوره في بلدته. وبعد أن أخذنا الإذن من ذوينا، قررنا أن نذهب يوم خميس بعد انتهاء الدراسة، لكي نزور صديقنا ونعود عصر يوم الجمعة التالي.

لم يكن صديقنا موجودا معنا يوم السفر، لكنه كان قد ترك لنا العنوان ووصف دقيق لما يجب أن نفعله: اطلبا من كمساري الأوتوبيس أن

ينزلكما عند شجرة الجميز الكبيرة التي في الطريق أمام بلدة الرمادنة. هناك سوف تجدون من ينتظركما ويصطحبكما باقي الطريق.

أخذنا الأوتوبيس من الموقف بمدينة فاقوس المتوجه إلى مدينة التل الكبير. لم يكن الإنجليز قد غادروا مصر في ذلك الوقت، وكانوا يعسكرون بقواتهم في منطقة التل الكبير.

عند شجرة الجميز، طلبنا النزول وفقا للتعليمات الدقيقة. كان الجو رائعا بعد المطر الخفيف. الأرض مبتلة وأوراق الشجر على جانبي الطريق والنباتات في الحقول مغسولة بماء المطر. فبدت خضراء لامعة تعكس شمس العصاري الذهبة.

تلفتنا يمينا ويسارا، فلم نجد سوى حمارين حصاويين مربوطين بجزع شجرة الجميز. أين الرجل المرافق؟ لا أحد. الطريق الذي تمر عليه العربات ترابي ضيق. لا عربات تمر ولا مارة.

سماء زرقاء صافية يشوبها قليل من الغمام الأبيض الناصع الذي تصبغ وجنتيه حمرة أرجوانية بديعة. حمام يطير حول أبراج بيضاء عالية كأنه يرقص باليه وقت الأصيل. أبو فصادة ومالك الحزين (أبو قردان) بريشه الأبيض الناصع وأرجله الصفراء المشربة بالحمرة يبحث عن وجبة غذاء سهلة.

العصافير تطير حولنا تحاول أن تستشف سبب وجودنا في هذا المكان الذي لم يتغير منذ آلاف السنين. السكون مطبق تكاد تسمع أصوات الشهيق والزفير وأنت تتنفس، وصوت الهواء وهو يدخل أذنيك. لا يقطع

الصمت سوى نهيق حمار هنا أو نباح كلب هناك، أو صوت فلاح ينادي آخر من بعيد.

بعد فترة غير قصيرة، ظهر لنا فلاح شاب فجأة كأنه جاء من تحت الأرض، يلبس جلبابا أزرق وطاقية بيضاء ويمسك عصا رفيعة قصيرة بيده. عندما رآنا هرول مسرعنا نحونا مرحبا. لا مؤاخذة لما تأخرتم قلت أروح أقضي مصلحة وأرجع تاني.

الحمار الحصاوي تجده أبيض اللون، أعلى وأغلى، وصحته أحسن من باقي الحمير. يشبه المرسيدس أو "بي إم دبليو" في عالم الحمير. يستخدم عادة في الركوب وفي إنجاب البغال. الحمار بصفة عامة، أليف من جنس الحصان. لكنه أصغر حجما، وأقصر ذيلا وأطول أذنين.

أنثى الحمار تسمى أتانا والصغير يسمى جحشا. الحمار هو إله الخمر عند اليونانيين: ديونيسوس. يتمتع بالصبر والجلد وحدة السمع، ويحفظ الطرقات الوعرة من أول مرة. ذكي جدا حذر حميم لعوب يتعلم بسهولة. وصفه بأنه غبي وصف غير صحيح بالمرة.

هو شعار الحزب الديموقراطي الأمريكي. كتب عنه توفيق الحكيم كتاب "حمار الحكيم". يوجد منه 44 مليونا منها 11 مليون في الصين وحدها.
جاء في شعر الفرزدق حيث يهجو جرير:
وإنا لنضرب رأس كل قبيلة، وأبوك خلف إتانه يتقمل.

تزاوج الحمار الذكر مع الحصان الأنثى ينتج عنه البغل. وإذا عكسنا ينتج النغل بالنون. مشكلة البغل أنه لا يستطيع الانجاب. السبب بيولوجي

بحت. خلية الحصان بها 64 كروموزوم تحمل الصفات الوراثية، وخلية الحمار بها 62 كروموزوم. خلايا البغل أو النغل الجنسية غير قادرة على الإنقسام وتكوين الجنين.

الإنسان له 23 كروموزوم والشمبانزي له 24 كروموزوم. أحد كروزومات الإنسان عبارة عن 2 كروموزوم ملتحمان مع بعضهما. هذا يوضح التقارب الشديد بيننا وبين قرود الشمبانزي. لاحظ هنا إن التقارب في صفات الكائنات المختلفة يعتمد، على التقارب في عدد الكروموزومات بينها.

من القصص المعروفة عن الحمار:
جاء الجار إلى جحا يستعير حماره، لأن حمار الجار مريض. فاعتذر جحا بكون الحمار في الغيط. في ذلك الوقت، نهق حمار جحا من داخل الدار. فقال الجار، هذا هو حمارك يا جحا. كيف تنكره؟ فقال جحا: سبحان الله. أتكذبني وتصدق الحمار.

قصة ثانية: اتفق الأسد والثعلب والحمار أن يقوموا بالصيد سويا وتقسيم الغنائم فيما بينهم بالعدل. قام الأسد بصيد غزال. فطلب من الحمار القسمة بينهم حسب الاتفاق. قام الحمار بالقسمة بالتساوي على أتم وجه وأحسن ما يكون.

غضب الأسد وهجم على الحمار ومزقه إربا. ثم قال للثعب قم أنت بالقسمة بدلا من هذا البائس. جمع الثعلب لحم الحمار والغزال ووضعهما في كومة واحدة. ثم وضع في كومة أخري ذيل الحمار.

وقال للأسد: اختر أنت يا مولاي. تبسم الأسد وقال للثعلب: من علمك فنون القسمة العادلة. رد الثعلب على الفور: الحمار يا مولاي.

قصة ثالثة: كان هناك رجل يعبر الحدود بصفة مستمرة بحمار وصندوق ملئ بالقش. كل مرة يشك فيه موظف الجمرك ويقوم بتفتيشه وتفتيش الصندوق. لكنه لا يجد معه شيئا، فيسمح له بالعبور. بعد عدة سنين، تقاعد موظف الجمرك وترك وظيفته.

أثناء سيره في الطريق، قابل مصادفة الرجل صاحب الحمار والصندوق. فخاطبه متسائلا: أنا عارف أنك تقوم بتهريب شئ ما عبر الحدود. فهل لك أن تخبرني ماذا كنت تقوم بتهريبة، وأعدك أنني لن أخبر أحدا بذلك. أجاب الرجل ببساطة: الحمير.

ركبنا أنا وسعيد الوزيري الحمارين، وكانا مجهزين ببرادع جديدة مزركشة، تبدو عليهما علامات الصحة وحسن التغذية. سارا الحماران واحدا خلف الآخر بين الحقول على حافة قنوات الري الضيقة حيث لا توجد سكة أو معالم واضحة، مسافة طويلة.

اختفى من خلفنا كل أثر للطريق الترابي الذي تسير فيه العربات. ومرافقنا يطمئننا أننا اقتربنا من الوصول، ويسلينا بحديث ممل لإضاعة الوقت لا أذكر منه شيئا الآن.

فجأة بدأت تظهر معالم القرية. مئذنة صغيرة وأبراج حمام ثم بيوت الفلاحين المعروشة بحطب القطن والذرة وقش الأرز. القرية على ما أذكر كان اسمها الرمادنة.

لا تقع قرية الرمادنة على طريق تسير عليه العربات. معزولة من كل الجهات عن العمران. لا توجد بها كهرباء ولا مياة جارية ولا مرافق من أي نوع. جزيرة رملية وسط الحقول الخضراء.

ربما يرجع اسم الرمادنة إلى قبيلة الرمادنة التي سكنت هذه المنطقة منذ قديم الزمن. فرع الرمادنة جاء من قبيلة القرارشة، نسبة إلى قريش. وهي قبيلة عربية استوطنت بلاد الطور في زمن مبكر جدا، وتحالفت مع قبيلة الصوالحة أقدم القبائل العربية استيطانا في جنوب سيناء. هناك قرى كثيرة في الشرقية سميت على اسماء القبائل العربية التي سكنتها. منها: السماعنة، السماكين، الحجاجية، الصوالح، إلخ.

في هذه البقعة، أنت معزول عن العمران والحضارة الحديثة تماما. لا تستطيع أن تصلك عربة إسعاف أو مطافي أو بوليس. المريض يؤخذ على حمار مسنودا من الجانبين إلى أن يصل إلى أقرب اسبتالية (مستشفى) في البندر.

في أغلب الأحيان، يكون السر الإلهي قد خرج قبل الوصول بمدة طويلة. عندما تسمع أن أبو محمد ودوه الاسبتالية، هذه أخبار موش ولابد. تعني أن واجب العزاء قريب بعد يوم أو إثنين.

كيف يحفظ الأمن في مثل هذه المناطق المعزولة؟ وكيف تفض المنازعات؟ عن طريق مجالس حق العرب. يحسم الأمر بالرجوع إلى

الشرع في معظم الأحيان وخصوصا في مسائل الزواج والطلاق والحلال والحرام، ثم إلى العرف.

القاضي أو شيخ القبيلة يكون عادة رجل مشهود له بحسن السلوك كبير السن يرتضي الجميع بحكمه. يحكم غالبا بالدية في حالات القتل الخطأ وإتلاف المحاصيل. السرقة عقوبتها طرد اللص من القرية والتبرؤ منه.

لمعرفة السارق، يجلس المشتبه فيهم أمام شيخ القبيلة. يقوم الشيخ بحمي طاسة من الحديد في النار حتى تحمر. يطلب من كل متهم فتح فمه وإخراج لسانه.

ثم يقوم بوضع الطاسة المحمية على لسان المتهم. إذا كان بريئا، لن تصيبه النار بأذى. وإذا كان مذنبا، احترق لسانه وصرخ من شدة الألم. الطاسة تسمى عند قبائل سينا "البشعة".

هناك تفسير علمي للبشعة. المعروف أن اللص يكون مضطربا وفي حالة نفسية سيئة. بذلك ينشف ريقه ويجف حلقه. ومن ثم يحترق لسانه عند اقتراب البشعة منه.

أما البرئ، فيكون لسانه مبللا بسوائل الفم التي تعمل كحاجز وتحميه من الإحتراق. المعروف أن اليد المبللة بعد غمرها بالماء تستطيع أن تلمس الجمر أو حتى الرصاص المنصهر دون أي أذى.

وصلنا إلى بيت صديقنا وسط القرية، فوجدناه في انتظارنا. قابلنا بحفاوة، وطلب منا أن نلقي السلام على والده. وجدناه مريضا فاقد البصر جالسا على حصيرة في غرفة مقابلة لغرفة الضيافة.

ألقينا عليه السلام، رد التحية بصوت جهوري مثل الأسد الجريح، وأخذ يوجه كلامه إلى صديقي سعيد الوزيري ويسأله عن والده. فقد كان يعرفه ويشتري منه مايلزمه عندما ينزل إلى البندر. لا شئ يذل الإنسان مثل المرض.

عدنا إلى الحجرة المقابلة، فوجدنا طبقا من العسل الأسود وطبق بلح مجفف وطبق سمسم. طلب منا صديقنا أن نأكل. عندما شاهد ترددنا، بدأ هو الأكل، وأخذ بلحة بين أنامله وغطها في العسل، ثم رشها بالسمسم ووضعها في فمه. ضحكنا وقمنا بمحاكاته.

عندما غربت الشمس وأرخى الظلام سدوله، خرجنا لكي نذهب إلى المضيفة على بعد خطوات قليلة من منزل صديقنا. شاهدنا شوارع القرية الضيقة والحقول الممتدة، مع آخر ضوء تركته لنا شمس المغيب. هبات النسيم المنعش تداعب وجوهنا بين الفينة والأخرى.

بدأ البدر يشرق في الأفق البعيد. فبدا كقرص ناصع البياض. يشبهه ابن الرومي في شعره الرائع برقاق الخبز في استدارته:

ما أنس لا أنس خبازا مررت به، يدحو الرقاق وشك اللمح بالبصر.
ما بين رؤيتها في كفه كرة، وبين رؤيتها قوراء كالقمر. إلا بمقدار ما تنداح دائرة، في لجة الماء يلقى فيه بالحجر.

وعندما يكون هلالا، يطل علينا كابتسامة رقيقة. جاء في شعر ابن المعتز:
انظر إليه كزورق من فضة، قد أثقلته حمولة من عنبر.

وصلنا أخيرا إلى المضيفة. وهي بيت ريفي مستقل بفناء ترابي واسع. يطل على الفناء من داخل الدار، مايشبه التراس. تصعد إليه بعدة درجات. مفروش بالحصر ومضاء بمصابيح الكيروسين.

ظللنا نلعب ونجري هنا وهناك في ضوء مصابيح الكيروسين الخافته المختلط بضوء البدر الذي بدأ يعلو في سماء القرية. عند آذان العشاء، ذهبنا للصلاة في جامع صغير بالقرب منا.

عند عودتنا، وجدنا حوش المضيفة مفروش بالحصر وموضوع عليها عدة طبالي (جمع طبلية). أربعة أو خمسة لا أذكر. وبدأت الرجال تأتي بعد صلاة العشاء حاملة ما تستطيع من مختلف أنواع الأكل.

هذا يأتي بحلة محشي وفرخة محمرة. وذلك بحلة ملوخية وحلة أرز مطبوخ. وآخر بطاجن سمك مطبوخ بالصلصة. وغيره بصينية رز باللبن وعيش مخبوز. وفاكهة وخضراوات طازجة وكل ما ينتجه الريف من خير وبركة.

يضع كل منهم ما معه من أكل على الطبالي المفروشة بورق الجرائد أو بمفارش قطنية. يجلس الجميع على الحصر للأكل ومعهم أولادهم الصغار.

جلسنا معهم لتناول العشاء. وبعد العشاء تناولنا الحلويات مع الشاي وتناول الكبار القهوة. بعد ذلك، واصلنا اللعب كعادتنا، وواصل الكبار الحديث عن أمورهم الخاصة ومشاكل الزرع والحصاد والفلاحة.

كانوا جلهم فلاحين لا يعرفون مهنة غير الفلاحة. علمت من صديقنا أن أهالي القرية يفعلون هذا، كل يوم خميس. وهي فرصتهم الوحيدة للتجمع والسمر ومناقشة مشاكلهم.

لا يشترط أن تأتي بالطعام لكي تشاركهم العشاء. فليقدم كل منهم ما يجود به من عطاء، وليأخذ كل منهم ما يحتاجه من غذاء. قمة الإشتراكية التي تتحدث عنها الكتب.

قضينا ليلتنا مع صديقنا الرمادي. وفي الصباح تناولنا الفطار ثم ذهبنا للغيط. رأيت مساحات كبيرة مزروعة بالطماطم تركت لتفسد. وعندما سألته عن السبب. أخبرنا بأنهم وجدوا أن تكلفة نقل ثمار الطماطم أكبر من ثم المحصول. فقرروا تركها كسماد للأرض.

وقت العصر، أخذنا الحمارين الحصاوي والمرافق. وعدنا أدراجنا. انتظرنا الأوتوبيس عند شجرة الجميز ليعود بنا إلى بلدتنا فاقوس. بعد رحلة ممتعة من الصعب نسيانها.

بعد حصول سعيد الوزيري صديقي ورفيقي في هذه الرحلة على شهادة الإعدادية، تطوع في الجيش لكي يصبح جاويشا. وظل يسأل عني ويزورني كلما نزل في أجازة.

أخبرني في أحد المرات أنه متواجد في منطقة نخل بوسط سيناء. ثم تزوج وجاء مع زوجته لكي يزورنا في بيت العائلة بالزقازيق قبل حرب 67 مباشرة.

بعد الحرب انقطعت أخباره ولم أعد أسمع عنه شيئا. وبينما كنت أبحث في كتبي، وجدت كتاب كليلة ودمنة مكتوبا عليه إهداء من سعيد الوزيري لي بخط يده.

تذكرته والأيام الجميلة التي قضيناها معا ونحن أطفال، عندما كنا نذهب سويا إلى السينما. فكم كانت سعادتنا بمشاهدة أفلام أنور وجدي وليلى مراد. وبكيت ثم بكيت. فليرحم اللّٰه شهداءنا برحمته الواسعة.

الفصل الخامس عشر

بعد قيام الثورة عام 1952م، انتقل والدي للعمل بقرية ههيا في محافظة الشرقية، وترك العمل بالشون لكي يعمل بالحسابات. هي ترقية من الناحية الوظيفية، لكن قرية ههيا لا ترقى حضاريا لمدينة فاقوس التي كنا بها. فهي لا تزال قرية زراعية ليس بها كهرباء أو مياة نقية أو مجاري عمومية.

معظم سكان قرية ههيا من الفلاحين وقليل من الموظفين. شوارعها ترابية ومحلاتها صغيرة معدودة. بها شارع واحد تجاري يسمى "السكة" وقطار سوارس يربطها بقرية أخرى اسمها "الإبراهيمية".

تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن مدينة الزقازيق عاصمة محافظة الشرقية. يمر بها خط السكة الحديد الواصل بين مدينة القاهرة والمنصورة.

يمر بها أيضا خط أتوبيس يطلق عليه الفلاحون اسم "سانتاكرفت". توجد بها جهة الغرب، ترعة كبيرة نسبيا تسميها الأهالي البحر، وجهة الشرق ترعة صغيرة موازية للسكة الحديد.

ههيا هي أصل بلدنا. ولدت بها بالرغم من أنني لم أعش فيها إلا سنوات معدودة. هي بلد والدي ووالدتي وزوجتي. من القرى القديمة جدا بالقطر المصري.

ذكر جوتيه فى قاموسه قرية بإسم "Hehou" وقال إنه اسم ناحية بالوجه البحري، غالبا هو الاسم المصري القديم لبلدة ههيا لقرب الشبه بين الاسمين. وردت أيضا فى تحفة الإرشاد بإسم ههية.

من أعلامها المرحوم خالد محمد خالد. ولد بقرية العدوة مركز ههيا فى يونية 1920م. كان عالما إسلاميا كبيرا، وعضوا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب. وكان عميدا لمعهد البحوث الإسلامية. له العديد من الكتب الدينية. توفى فى 29 فبراير 1996م.

كذلك المطرب المعروف عبد الحليم حافظ. ولد بقرية الحلوات التي كانت تابعة لههيا ثم انفصلت إداريا عنها وأصبحت تتبع مركز الإبراهيمية.

أسمع من أجهزة الراديو القليلة، التي تعمل بالبطاريات السائلة 12 فولت، بينما كنت أسير في شوارع القرية، أغاني الثورة الوليدة. أغنية أم كلثوم "مصر التي في خاطري"، وأغنية ليلي مراد "الإتحاد والنظام والعمل"، وأغنية محمد قنديل "ع الدوار راديو بلدنا بيقول أخبار". وكذلك أغنية لمطرب، أعتقد أن اسمه عليش، يقول على لسان الفلاح المصري:

طول عمري لابس خيش، ما كنت يوم قالعه
ولا اكلش لقمة عيش، والقمح أنا زارعه

عندما الغت الثورة الألقاب والطرابيش، خرج والدي للشارع كاشفا رأسه أول مرة. فسألته، عن إحساسه وهو يسير بدون طربوش. فقال:

"أنا شاعر أنني ماشي من غير هدوم في الشارع". إلى هذه الدرجة تتحكم فينا العادة.

جاءت ثورة 1952م، ومصر غنية بالمطربين والمطربات. أم كلثوم في أوج نضجها الفني. أجمل صوت وأداء لأم كلثوم تجده في فترة الخمسينيات. كذلك محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وليلى مراد ومحمد فوزي وعبد العزيز محمود وكارم محمود، إلخ.

تساندهم كوكبة من الشعراء ومؤلفي الأغاني العظام، أمثال بيرم التونسي وأحمد رامي وكامل الشناوي وغيرهم. تمدهم بالألحان، أعظم ما أنتجته مصر من ملحنين عباقرة، محمد القصبجي وزكريا أحمد ورياض السنباطي ومحمود الشريف وأحمد صدقي وآخرين.

الموسيقى لها أهمية كبيرة في حياة الإنسان وحياتي بصفة خاصة. مالا نستطيع أن نعبر عنه بالفنون، من نحت وتصوير، نعبر عنه بالشعر والكلمات. ومالا نستطيع أن نعبر عنه بالشعر والكلمات، نعبر عنه بالموسيقى والألحان. الموسيقى ببساطة هي لغة تعبير عالمية تنقل الأحاسيس المرهفة بين الناس. بل هي أكثر من ذلك.

عند أهل الشرق الأقصى، الهند والصين والدول المجاورة، لا فرق بين الموسيقى والدين. مصدر الموسيقى عند الهنود، علم الرياضيات والتنجيم وعلم النفس. هذا أساس الموسيقى الغربية أيضا.

الموسيقى كانت في الزمن القديم، أحد فروع الفلسفة. فيثاغورث وأفلاطون وأرسطو، كانت لهم اسهامات جليلة في عالم الموسيقى.

قدماء المصريين كان إهتمامهم بالغ بالموسيقى. ابتكروا آلات موسيقية عديدة. ويكفي أن تعرف أن عدد الطبول عندهم بلغ 26 نوعا، غير آلات النفخ والآلات الوترية التي لا تحصى ولا تعد. والتي ذكر بعضها علماء الحملة الفرنسية في كتاب وصف مصر.

كانت الموسيقى تستخدم في المعابد للصلاة وفي الاحتفالات والمناسبات الإجتماعية. وكانت تدرس للأطفال في مدارسهم كمادة علمية لازمة لتقدم الإنسان ورقيه.

الموسيقى درسها الفلاسفة العرب أيضا، أمثال الكندي والفارابي، الذي الف "كتاب الموسيقى الكبير" المتضمن الأسس والقواعد الموسيقية.

الموسيقى عند الفيلسوف كانط "لغة الإنفعالات"، وعند هيجل "مجال تتجلى فيه أغوار النفس وملكة الفهم".

يقول شوبنهور عن الموسيقى: "ما العالم إلا موسيقى ونغم، فهي الأمل في تحرر الإنسان من اليأس". ويقول نيتشة: "العالم بدون موسيقى غلطة كبيرة لا تغتفر".

ويقال أن الرب عندما أمر موسى بسقاية قومه، سمع هاتفا يقول "يا موسى اسقى". فجاءت في أذنه كلمة "موسيقى". من هنا يأتي أصل الكلمة.

كان النبي داود يسبح ربه بآلة الناي، ويتغنى من الزبور وضروب الدعاء، المعروفة بمزامير داود.

أورفيوس بن أبولون، أمه إحدى الموزيات ربات الشعر والموسيقى في الأساطير اليونانية القديمة. كانت موسيقاه تسحر الحيوانات والنباتات والجماد. التحق بالسفينة "أرجو"، وقام بإنقاذها عندما وقعت في مآذق كثيرة.

معظم الأديان تقول أن أصل الخلق كلمة من الرب، "كن فيكون". في الأصل كانت الكلمة. والكلمة صوت، أو نوع من الموسيقى.

النظريات الحديثة تقول أن كل أشكال الطاقة وعالم الذرة، يتكون من جزيئات هي أشبه بأوتار موسيقية متناهية في الصغر، على شكل حلقات مقفلة أو مفتوحة، في تذبذب وعزف مستمرين.

أي أن الكون كله عبارة عن أغنية موسيقية عظيمة، تساهم فيها الذرات وكل أشكال الطاقة التي نعرفها بأنغامها المختلفة.

الموسيقى تستخدم في العلاج النفساني. وتساعد على الفهم والتحصيل عندما يسترخى الجسد وتتغير حالة المخ من الحالة العادية "بيتا" إلى حالة الإسترخاء "الفا".

عندها يمكن للمخ أن يستوعب من المعلومات أضعاف قدرته العادية. أنواع معينة من الموسيقى هي التي تساعد على بلوغ الحالة "الفا".

مثل موسيقى باخ وموزارت. وهي أيضا تسرع في نمو النباتات، وتساعد على زيادة الإنتاج الحيواني.

لذلك لا تتعجب عندما تعلم أن الجنين في بطن أمه، يتأثر بالموسيقى. الموسيقى قد تشكل مستقبل الإنسان، إذا كان أحد أفراد أسرته موسيقيا.

هذا هو الحال بالنسبة لموزارت، فقد كان والده موسيقيا. بيتهوفن أيضا، كان والده مغنيا. أم كلثوم، كان والدها منشدا دينيا. ليلي مراد، كان والدها مطربا، زكي مراد. على الحجار، كان والده مطربا، إبراهيم الحجار.

جلس جدي بعد صلاة العصر، يستمع إلى الراديو، الفيليبس الذي يعمل بالبطارية السائلة، وهو يذيع أغنية "قالوا أحب القس سلامة وهو التقي الورع الصالح" للسيدة أم كلثوم. فوجدته يتمايل طربا.

عندما انتهت أغنية أم كلثوم، تبعها أغنية "ياسمر ياجميل" للمطرب عبد العزيز محمود. فوجدته يتململ في مجلسه. بدأت علامات الضيق والقلق تظهر على وجهه عند سماعه المقطع الذي يقول: "يابو المنديل أوية بأوية، دخت يا خويا سمي عليه".

وعند المقطع الذي يقول: "ساعة ما بشوف العود طارح أفضل سارح قول يجي جمعة"، هب واقفا ليقفل الراديو قائلا: "الراجل ده بيتكلم كلام فارغ".

لم أفهم معنى "العود طارح" إلا عندما كبرت. وأنا أختلف مع جدي في الحكم على هذه الأغنية الجميلة. الأغنية قمة في الجمال والتصوير الفني البديع، بالرغم من شعبية كلماتها. لكنه اختلاف تذوق الأجيال.

في مساء نفس اليوم، وجدت هرج ومرج في الشارع والناس تجري، فجريت معهم لكي أعرف السبب. في نهاية القرية بيت ريفي أمامه أرض مزروعة يملكها رجل عجوز هو صاحب البيت. أمام البيت بالضبط توجد نخلة بلحها من أجود الأنواع أعتقد أنه من النوع المعروف بالعمري الذي يؤكل رطبا أو مجففا.

عندما ينضج البلح، يجلس الفلاح على كرسي أمام الدار ووجهه للغيط والنخلة التي تقع بالقرب من حافة الطريق. فلا يجرؤ أحد من المارة الإقتراب من البلح المتساقط من النخلة بسبب هبوب الريح.

مجموعة من الشباب ساءهم هذا الوضع. فتراهنوا بينهم على من يستطيع أن يسرق بلحا من هذه النخلة أثناء وجود صاحبها القائم بحراستها طول الوقت.

جاء أحدهم وقت الغروب، متسللا بين نباتات الحقل. جاعلا جذع النخلة بينه وبين صاحبها المرابض كالأسد الهصور. ترك اللص حذاءه وبدأ في طلوع النخلة من الجانب المقابل وكله حرص كي لا يراه صاحبها.

ظل صاعدا ببطئ بدون مطلاع، مستخدما يديه ورجليه فقط. إلى أن وصل إلى البلح. فأخذ يقطف منه ويضعه في جيوب جلبابه. وبينما هو منهمك في سرقة البلح، إذا بيده تمسك عش ذنابير حمراء كبيرة.

خرجت الذنابير عن بكرة أبيها تدافع عن عشها وصغارها بضراوة. أخذت تهاجمه بشراسة وتلدغه في وجهه ورأسه ورقبته ويديه ورجليه. والمسكين لا يملك الدفاع عن نفسه في هذا الوضع البائس..

أخذ يصرخ وهو يهبط النخلة بسرعة فائقة فختل توازنه وسقط على الأرض. لحسن حظه أن الأرض كانت مروية حديثا. فجاءت سقطته غير قاتلة. كسور هنا وهناك يستطيع المجبراتي علاجها.

هرول العجوز صاحب النخلة لنجدة اللص وحمله إلى داره. سقاه شربة ماء وقال له معاتبا: "يابني لما أنت عاوز بلح، كنت قوللي وأنا أعطيك ما تريد". أجاب اللص ووجهه متورما من قرص الذنابير: "أصل أنا يا عمي كنت مراهن".

بهانة سيدة فلاحة عجوز تسكن مع ابنتها في بيت فلاحي دور أرضي واحد. أصيبت بهانة بالرمد الحبيبي في عينيها. ربطت لها ابنتها عصابة على عينيها.

بعد يوم أو إثنين، وضعت الإبنة أمام أمها طبق بامية وقت العشاء. فوجدها بعد الأكل، تبلل يدها بوضعها في طبق البامية، ثم تبلل بأصابعها جفون عينيها المتورمتين. صرخت الإبنة في أمها قائلة: "بتعملي إيه يامه وإيه الهبل ده؟"

أجابت بهانة بعفوية شديدة: "أصلي يابنتي عنيه بتحرقني ولقيت البامية ساقعة ومزفلطة". يا عالم، موش كل شئ ساقع ومظفلط يصلح كعلاج.

حكاية سمعتها عن جدتي عندما كانت شابة. مرضت جدتي ولازمت الفراش. عندما اشتد مرضها وشارفت على الموت، أحضروا لها طبيبا من المستشفى.

بعد الكشف، كشّر الطبيب عن وجهه وذر أنفه معربا عن سوء الحالة، وخرج مسرعا من البيت يتبعه أخو جدتي. بعد أن ابتعدا مسافة، سأل الطبيب: "نديها دوا إيه يا دكتور". أجاب الطبيب باقتضاب وقرف: "وفروا فلوسكم".

قال الأخ في نفسه، لو رجعت وقلت لهم اللي قاله الطبيب، سوف تحدث مناحة في البيت. فماذا أفعل؟ ذهب إلى محل بقال وقام بشراء زجاجة غازوزا ليمون. وضعها في كيس ورق وعاد إلى البيت.

"خير يا محمد جبت الدوا؟" سأل من بالدار الأخ عند عودته. "أيوه، اعدلوها نسقيها أول جرعة" أجاب الأخ. فتح محمد زجاجة الغازوزا وملأ ملعقة ووضعها في فم أخته المريضة قائلا: "بالشفا إن شاء اللّٰه".

فتحت جدتي عينيها بعد أن تذوقت طعم الدواء وقالت: "إيه ده؟ دي غازوزا". ضحك الأخ قائلا: "هو انتى عرفتيها، واللّٰه حتطيبى وتبقى عال". وبالفعل، طابت جدتي من مرضها وعاشت حتى قارب سنها التسعين.

حضرت فرح فلاحي بجوار بيت جدي. تم فرش حوش واسع بالرمال الصفراء. بدأ الإحتفال بعد صلاة العشاء مباشرة. يجلس المدعوين على الرمال في شبه دائرة متسعة. داخل الدائرة تتحرك الغازية وتقوم بالرقص بالصاجات والغناء ولم النقوط.

الفرقة الموسيقية تنتحي جانبا، وهي مكونة من طبال وعازف مزمار وعلى ما أذكر عازف ربابة. الأغاني معظمها أغاني ريفية تتخللها بعض الأغاني الحديثة لكارم محمود وعبد الغني السيد وعبد العزيز محمود.

جهاز العروسة كان عبارة عن سرير بعمدان سوداء وملّة خشب ومرتبة قطن واحدة ومخدة أو إثنين طويلة بعرض السرير ولحاف.

صندوق خشبي يسمى سحارة لحفظ الملابس والأشياء التي لها قيمة. حصيرة وطبلية خشب. بعض أواني الطبخ النحاسية والفخارية. هون نحاس وطشت غسيل. قلة للشرب وأبريق أسود لزوم قضاء الحاجة.

كردان وحلق ذهب أصلي أو قشرة وفي بعض الحالات خلخال فضة. ملابس جديدة للعروسة، كحل للعيون، وحجر مسامي لحك كعبي الرجلين للتخلص من القشف والخلايا الميته.

رأيت العروس، وهي فلاحة صغيرة لا تزيد عن السادسة عشر ربيعا، تبكي بكاء مرا خوفا من ليلة الدخلة. لا أنسى منظرها وهي جالسة القرفصاء على الأرض في ركن الغرفة تبكي، وهي تحضن رأسها بكفيها كأنها مصابة بالصداع.

حولها نساء يتوشحن بالسواد كأنهن غربان تتوسطهم الداية. منظر في غاية الرعب والقسوة. تقوم الداية بوظيفتين في الريف. المساعد في الولادة، وفي فض غشاء البكارة.

تدخل الداية مع العريس، ومعظمهم صغار السن ليست لهم خبرة سابقة أو دراية بعلاقة الرجل بالمرأة. وتدخل معهم أم العريس وأم العروس أو ما ينوب عنهما من النساء.

إذا فشل العريس، وغالبا ما يفشل، في فض البكارة باستخدام إصبعه الملفوف بالمنديل، قامت الداية بإكمال المهمة. العروس تمسكها بشدة السيدتان الموجودتان مع الداية، لا تستطيع فعل أي شئ سوى الصراخ. حالة أخري من حالات الرعب التي كانت تعيشها المرأة المصرية بحكم العادة الموروثة.

بعد فض غشاء البكارة، يؤخذ المنديل المستخدم وبه آثار الدماء، ويطوف به أهل العروس القرية معلنين عن شرف البنت الذي لم يمس من قبل.

طبعا عادات قديمة بدأت تنقشع، أعتقد أنها غير موجودة حاليا. والعادة السيئة الأخرى، التي أود أن تختفي من بلادنا بالمرة، هي عادة ختان الإناث. فهي لا تمت إلى الدين أو الإنسانية بصلة من قريب أو بعيد، وتجرم بالقانون حاليا، لكنها لا تزال تمارس في قري وجه بحري والصعيد.

الفصل السادس عشر

في أواخر الأربعينات، ذهبت مع والدي لزيارة جدتي، التي كانت تسكن في قرية ههيا، وكان والدي يعمل في مدينة فاقوس، التي تبعد عنها مسافة 30 كيلو متر تقريبا.

الوقت كان ظهرا، في يوم صيف شديد الحرارة. انتظرنا القطار على الرصيف مع مجموعة قليلة من الفلاحين. بزوجاتهم وعيالهم ومودعيهم.

لم يكن من اللائق أن تسافر وحدك، بدون أن يأتي معك أحد ليوصلك إلى المحطة. لكي يطمئن عليك، ويتأكد من أنك قد غادرت المكان في يسر وأمان. وأنك قد وجدت مكانا مريحا بجوار النافذة. يظل المودع واقفا يحدثك وينتظر معك القطار.

الركاب، هذا يحمل قفة مغطاة بالخيش، وذاك سبت سلّال تطل منه رأس أوزة بمنقارها البرتقالي. هذه تحمل طفلا على كتفها أو في بطنها. وهذا صبي يمسك بطرف رداء أمه بيد، وباليد الأخرى خيارة خضراء داكنة وقعت على الأرض أكثر من مرة. وتلك طفلة تلبس فستانا زاهي الألوان، تمسك بيد والدها. الذباب لا يرحم، وكذلك الباعة الجائلون.

القطار الذي يبدأ من قرية الصالحية وينتهي بمدينة أبو كبير، يمر بخمس محطات بينهما. الخط محلي بني حديثا. وكان السبب في شائعة "الشراقوة عزموا القطر".

القصة هي أن أهالي قرية "إكياد"، عندما رأوا المهندسين والعمال وهم يمهدون لمد شريط السكة الحديد الجديد، قرروا أن يقوموا بالواجب. فذبحوا الذبائح، وأعدوا الولائم، وخرجوا بالصواني والأكل، ووضعوه على الشريط.

من هنا جاءت حكاية "الشراقوة عزموا القطر". وزادوا في الحكاية، وادعوا أن أحدهم قال: "نجيب له معسل يدخن؟". فرد آخر: "يا بوي، دي التكة بتاعته تمن". أي ثمن رطل تبغ.

وصل القطار، فركبنا ثلاث محطات إلى مدينة أبوكبير آخر الخط. انتظرنا قطار الشرق السريع المزدحم، الآتي من مدينة المنصورة، والمتوجه إلى القاهرة.

وصلنا بعد محطة واحدة إلى قرية ههيا. هي في الواقع، أكبر من قرية، وأصغر من مدينة. لم تكن بها كهرباء أو مياة أو مجاري أو طريق واحد مرصوف.

أمام محطة القطار، مطحن غلال ومضرب أرز، تملكه عائلة أبو حمادة، عائلة والدتي. يجلس في غرفة الميزان الصغيرة، الشيخ عبد الحميد. يزن الحبوب المطلوب طحنها، وبناء على الوزن، يقدر أجرة الطحن.

قرش صاغ واحد، أو ثلاثة تعريفة، أو شئ من هذا القبيل. في بعض الأحيان، يكون الدفع عيني. ثلاث بيضات وكوز بطاطة. حفان ذرة أو شروة جميز.

عندما تفشى وباء الكوليرا في الأربعينات، وكانت الناس تتساقط مثل أوراق الخريف، قطعت الطرق وتوقفت المواصلات لمدة ثلاثة شهور. وكان الشيخ عبد الحميد ينظر من فتحة غرفة الميزان، ويقوم بتسلية نفسه، بوضع علامة في كراسته كلما مرت عليه جنازة.

سجل في أحد الأيام 30 جنازة في يوم واحد، وكان يتندر بذلك. في اليوم التالي، لم يحضر الشيخ عبد الحميد إلى المطحن، بسبب قئ واستفراغ. بعد قليل، مر نعشه من أمام غرفته، دون أن يقوم أحد بوضع علامة في كراسته.

أحد الأيام، في الثلاثينات، جاء مفتش من مصلحة الدمغة والموازين إلى المطحن، وقام بفحص الموازين المستخدمة في وزن الحبوب للتأكد من مطابقتها للمعايير الحكومية.

وجد أحد الموازين، "نصف أقة"، تنقص قدرا قليلا عن الوزن المطلوب. حرر المفتش محضرا، وأصبحت هناك قضية ومحكمة، إلخ.

لم يجد أخوالي أصحاب المطحن، محاميا يقبل هذه القضية. وقعوا في حيص بيص. فقد يحكم القاضي بغلق المطحن أو بغرامة كبيرة لا قبل لهم بها. هنا جاء خالي محمود، وكان صبيا في ذلك الوقت، وقال: "أنا سوف أقوم بالدفاع عنكم في هذه القضية". فلا تخافوا: "سوف نكسبها بإذن الله".

سأل القاضي: "هيه، ما هو دفاعك وقد ضبطت متلبسا."

أجاب خالي محمود بكل ثقة:"يا سيدي القاضي. هذه الموازين، لا أستخدمها في البيع والشراء. وإنما أستخدمها فقط في تحديد وزن ما سوف أقوم بطحنه من غلال. وأجرة الطحين غير مسعرة من الحكومة.

فلو وضعت ظلطة أو قطعة صخر مكان النصف أقة الناقص، لما لامني أحد. ولو ضاعفت الأجرة أو أنقصتها، لما لامني أحد أيضا."
لم يجد القاضي، أمام رصانة هذا المنطق، بدا من الحكم بالبراءة. للأسف خالي هذا لم يكمل تعليمه. فقد كان جدي أبو والدتي لا يؤمن بالتعليم. لأنه كان يحتاج أولاده في التجارة.

في العشرينات، كان أحد عمال المطحن، اسمه أمين. كان شابا عمره 18 سنة. يقف ليفرغ القفف والأجولة في قادوس المطحن، حتى تسقط الغلال تحت حجر الطاحونة الدائر. فتخرج طحينا ناعما من فتحة جانبية.

في نهاية اليوم، يقوم هو وزملاؤه بالدق على حجر الطاحونة بالشاكوش والأزمير، في المناطق الناعمة الملساء من سطح الحجر، لعمل خرابيش وخطوط عرضية، تساعد في الطحن.

شيخ جليل طاعن في السن وميسور الحال، يلبس العمة والجبة والقفطان. في الريف، إذا كنت ميسور الحال، فلن يقف في سبيل رغباتك وأحلامك شئ. أراد الشيخ الزواج في هذه السن. وكان له ما أراد، دون مشقة.

الزوجة غادة في ريعان شبابها، ملكة في الحسن والجمال. أسكنها الشيخ في فيلا محاطة بحديقة كبيرة غناء وارفة الظلال، في مدخل البلد. إلى هنا وهذا شئ عادي في الريف. لكن هناك مشكلة واحدة. وهي أن أحد الأشقياء من عائلة "أبو عطوة"، كان يحب الفتاة، التي تزوجها الشيخ، حبا جنونيا.

ماذا يفعل ونار الحب مشتعلة داخله، تكاد تصيبه بالهوس؟ استلم الشيخ بالخطابات. خطابات تهديد ووعيد بالطبع. إذا لم تطلقها، سوف أعمل فيك كيت وكيت. سوف أعطيك شهرا. سوف أعطيك أسبوعا.

الشيخ، بحكمة ما مر به من سنين عديدة، كان يتجاهل هذه الخطابات، ويجيب على زوجته، عندما تسأله عن سببها، قائلا: "لا مفيش حاجة، دول أصحابي يقومون بتهنئتي". كان يظن أن هذه مجرد مراهقة صبيانية، وأن هذا المهووس سوف يكف عن تهديده، ويتوقف وينهد مع مرور الوقت.

لم يرغب في إبلاغ البوليس خوفا من الفضائح، والقيل والقال. كثيرون منا سوف يفعلون نفس الشئ. خصوصا إذا كنا نعيش في الريف. عندما يئس الحبيب المكلوم، ولم تجد طلباته أي استجابة من الشيخ الرصين، قرر أن يأخذ الأمر بيده.

اتفق مع ثلاثة آخرين من الأشقياء. أحدهم، أمين الشاب الذي كان يعمل في مطحن جدي على القادوس. أعطوه السكاكين، لكي يسنها على حجر الطاحونة، حتى تكون حادة جاهزة لتنفيذ الخطة الشيطانية.

في ليلة حالكة السواد في لون الهباب، لم يجد الأشقياء سبيلا للدخول إلى الحديقة، إلا عن طريق فتحة الري في أحد الجوانب. تسللوا خلالها الواحد تلو الآخر. لم يجدوا كلبا يعوي، لأن الشيخ كان يعتبر الكلاب نجسة، تمنع دخول الملائكة. لكنه نسي أنها تمنع أيضا دخول اللصوص والقتلة.

دخلوا الفيلا من شباك الصالون. وبحثوا عن الشيخ وزوجته، فوجدوهما في مخدعهما يغطان في نوم عميق. قرروا أن يتخلصوا منهما معا، حتى لا تتعرف الزوجة عليهم.

بعد أن قاموا بالذبح والطعن، دون رحمة أو هوادة، وسط الصراخ المكتوم والحشرجة والأنفاس المتقطعة وبرك الدماء التي صبغت الفراش، لاذوا بالفرار.

أثناء فرارهم، خشوا أن يكونوا قد أخفقوا في مهمتم القذرة. فأرسلوا أحدهم، أمين، لكي يتأكد من موت الضحيتين، الشيخ وزوجته الفاتنة. عاد أمين، ودخل من نفس الشباك الذي دخلوا وخرجوا منه من قبل.

ذهب إلى غرفة الفراش، فاستشف أنات الزوجة، التي لم تكن قد فارقت الحياة بعد، تكاد لا تستبين. أما الشيخ، فقد توفي وأصبح جثة هامدة.

هنا، حدث ما لم يكن في الحسبان. شئ غريب جدا، ليس في الخطة، وليس له تبرير على الإطلاق. اقترب أمين من الزوجة، وقال لها بحنان، وبصوت خافت كي لا يسمعه أحد: "لا تخافي. سوف أقول لهم أنني

وجدتك ميتة." ثم لحق بزملائه الأشقياء، لكي يطمئنهم ويهنئهم على نجاح خطتهم الجهنمية.

باقي الحكاية يمكن استنتاجه دون مشقة. جاءت الخادمة في الصباح، فوجدت الزوجة لاتزال على قيد الحياة، لكن في حالة يرثى لها. جرت تصرخ إلى الطريق تستنجد بالمارة. أنقذت الزوجة بمعجزة، وتم القبض على الأشقياء الأربعة.

حكم على ثلاثة منهم بالإعدام، وحكم على أمين بالأشغال الشاقة المؤبدة. لأنه، رغم اشتراكه في قتل الشيخ ومحاولة قتل الزوجة في بادئ الأمر، إلا أنه، لصغر سنه، وبسبب رفضه قتل الزوجة عندما عاد إليها، أنقذ من حبل المشنقة بأعجوبة.

لو أمكن تقسيم الناس إلى أشرار وأخيار، لتخلصنا من الأشرار وانتهى الأمر. لكن ماذا نفعل، إذا كان الخير والشر يمتزجان في نفوسنا وعقولنا وقلوبنا وداخل كل خلية من أجسادنا.

بعد خطوات قليلة من المطحن، وعلى شمال طريق ترابي ضيق، كان يوجد دكان ريفي صغير. يبيع فقط البن لزوم عمل القهوة. يقف فيه رجل عجوز يلبس الجلباب والعمامة. وقف والدي أمام الدكان، وطلب رطل بن يمني مطحون.

قام الرجل بوزن رطل بن حب أخضر. ثم قام بوضعه في محمصة تعمل بالفحم. بعد ذلك، أضاف إليه الحبهان، ثم قام بطحنه بماكينة كبيرة، تعمل باليد.

بعد ذلك، مررنا بحقول خضراء على الجانبين. ثم عشة صغيرة من الطمي على ناصية حارة، على الجانب الشمال من الطريق. يعمل بها مبيض نحاس. صاحب المحل يجلس على الأرض، بجوار كومة فحم مشتعل. ينفخ فيه بالكور.

يقوم بوضع الإناء النحاس في الفحم، حتى يتغير لون النحاس إلى اللون الأحمر. يأخذ قطعة من القصدير الخام، ويضعها على الإناء، ثم بقطعة قطن كبيرة، يقوم بفرد القصدير على كل مساحة الإناء. فيتحول من اللون النحاسي إلى اللون الفضي في ثوان.

على باب العشة أو الدكان، إن صحت التسمية، يوجد رجل أخرس أبيض اللون أحمر الوجه ممتلء الجسم في الثلاثينات من العمر. يتحزم بحبل من منتصفه، يرفع به جلبابه البني حتى ركبتيه. يلبس طاقية ممزقة، ويقف داخل حلة نحاسية برجليه الحافية.

يقوم بالحركة بكل جسمه يمينا وشمالا وتقوم قدميه بحك قعر الحلة وكشط ما بها من صدأ أو قصدير قديم أو أوساخ صعبة الإزالة. كلما مررت على هذا الأخرس، في أي وقت، في الصيف أو الشتاء، أجده، بداخل الحلة، يتحرك يمينا وشمالا، فيما يشبه رقصة الروك أند رول.

تذكرت أسطورة سيزييف التي تحدث عنها ألبير كامو. عندما عاقبته الآلهة بحمل صخرة إلى أعلى الجبل، ثم يتركها تسقط، لكي يكرر هذا العمل الممل إلى مالا نهاية. أعتقد أن الأخرس في الحلة، أكثر مللا من سيزييف والحجر.

ربما تكون الآلهة هي أيضا، غاضبة من الأخرس، بسبب كونه لم يفعل شيئا في حياته يستحق الغضب. لأنها، في هذه الحالة، عاقبته مرتين. مرة بحرمانه من نعمة السمع، ومرة بوضعه في الحلة يعمل كرقاص أو بندول الساعة إلى أبد الآبدين.

ترى كم منا في حياته، مثل سيزييف أو مثل الأخرس. يجد نفسه مجبرا، بسبب أكل العيش، على النزول داخل حلة نحاسية، والهز بأردافه، يمينا وشمالا إلى مالانهاية؟

مررت أنا ووالدي في طريقنا بعدة منازل ريفية من اللبن. ثم مررنا بمنزل جدي، أبو والدتي. وهو أحد البيوت القليلة المبني بالآجر. يسكن الطابق الثاني خالي لطفي.

في أحد ليالي الصيف شديدة الحرارة، استيقظ خالي بعد منتصف الليل. ذهب إلى الشرفة لكي يشرب. القلل الفخار كانت توضع في الشرفات، لكي تبرد بتيار الهواء المار.

نظر خالي إلى الشارع، فوجد رجلا يجلس على عتبة الدار. لم يتبين ملامحه في ضوء البدر. عندما سأله من أنت، علم أنه الأسطى محيي الحلاق، الذي يقوم بالحلاقة للعائلة. ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخرة من الليل، أجاب أنه ينتظر زوجته التي تقوم بمساعدة بعض الجيران في خبز العيش.

ظل خالي يتحدث مع الأسطى محيي الحلاق لتسليته حتى تعود زوجته. الأسطى محيي رجل يعشق الفكاهة. ويقوم بعمل أشياء غريبة دون النظر لعواقبها.

بينما كان يسير يوما بجوار عربة كارو تحمل أقفاص طماطم، جرحت جريدة أحد الأقفاص أنفه. انتظر حتي يشفى الجرح، لكن أنفه كانت تزداد سوءا.

تذكر بيتا لأبي نواس يقول: "دع عنك لومي فإن اللوم إغراء، وداوني بالتي كانت هي الداء". مادامت أقفاص الطماطم هي التي جرحت أنفي، فلن تبرأ إلا بالطماطم.

أخذ، حبة طماطم كبيرة ناضجة. شقها نصفين، وربطها على أنفه. وعندما كان يشعر بحرقان، كان يصبر نفسه بأن الطماطم تأكل المرض. بعد يومين، ورمت أنفه وأصبحت في حجم البرتقالة. لم ينقذه سوى طبيب الصحة بالعلاج الناجع.

أثناء حديث محيي مع خالي، تبين لهما من بعيد في ضوء القمر، رجلان يقتربان.
من هؤلاء يا محيي؟ سأل خالي.
أجاب محيي، أظن أنه "ابن إخوات" المقرئ ومعه الشيخ مهدي صاحب الكتّاب.
ماذا يفعلان في هذه الساعة؟

كانا يشربان الحشيش أو البوظة في المولد، وهاهم يعودان، يتمايلان ويستند كل منهما على الآخر. ثم طرأت فكرة شيطانية على خاطر محيي الحلاق، تتناسب مع طبيعته الساخرة.

سأل خالي الذي كان لا يزال في الشرفة. هل تريد أن تضحك عليهما، وهما في هذه الحالة من السطل؟ فأجاب خالي بشغف، ياريت يا محيي.

بجوار البيت، توجد حارة صغيرة ملاصقة. دخل فيها محيي، وقام برفع جلبابه ووضعه فوق رأسه لكي يخفي ملامحه. وقام في نفس الوقت بخلع سرواله الداخلي. وانتظر حتى اقتربا وكانا على بعد عدة خطوات. وإذا به يقفذ من الحارة أمامهما، وينط في الهواء، ويخرج أصواتا تشبه الضراط.

بالطبع "ابن إخوات" والشيخ مهدي، لم يتوقعا شيئا مثل هذا. وبعد أن كانا يمشيان الهوينا، يستند كل منهما على الآخر، أطلقا سيقانهما للريح، ووليا الأدبار بسرعة الصاروخ. وظلا يجريان إلى أن وصلا إلى قرب نهاية الشارع.

يبدو أن هواء الفجر البارد، الذي لفح وجهيهما، مع الجري وتنشيط الدورة الدموية، أعاد إليهما بعض الوعي. فأخذا يتساءلان، ما هذا الذي رأيناه؟ هل هو عفريت أم تهيؤات شرب البوظة مع الحشيش؟ وحيث أنهما يسكنان بالقرب من المنطقة، لم يكن أمامهما سوى المحاولة مرة ثانية.

بعد فترة قصيرة، عادا يمشيان بحذر هذه المرة، وعيونهما على المنطقة التي ظهر فيها العفريت. كانا ممسكان ببعضهما، أخذا بالأحوط. وما أن وصلا إلى نفس المكان السابق، إذا بالعفريت يظهر فجأة، وينط أمامهما في الهواء. نصفه السفلي عاري، يخرج أصواتا تشبه الضراط كالمرة السابقة.

هذه المرة، كان جريهما أسرع من المرة السابقة. لو دخلا سباق الماراثون، لفازا بدون مشقة. في لمح البصر ، كانا في نهاية الشارع، ثم اختفيا عن الأنظار.

خالي في الشرفة يراقب وهو يكاد يغمى عليه، وكاد قلبه يتوقف من شدة الضحك. ظل يقص علينا هذه الحكاية كلما رآنا، ولم يكن يمل تكرارها. هكذا كانت مصر في أوائل الأربعينات. شعب بسيط، لكنه وبدون شك، سعيد بحياته.

مررنا أنا ووالدي في نهاية الشارع على السني بائع الترمس. بلحية بيضاء، يلبس الجلباب الأبيض الناصع، والعمامة. ينده ندهة مميزة لا زالت ترن في أذني: "حلبة عال وترميييس". يزين عربته بقلل الفخار البيضاء بأغطيتها النحاسية اللامعة. نظيف الملبس، باين عليه ابن ناس، هيئته تختلف عن هيئة الباعة الجائلين.

بائع أخر يبيع الكتاكيت. يحملها في غربال فوق رأسه، وينده على الفلاحات وهو يعرض بضاعته قائلا: "ولا يربي الملاح إلا الصبايا الملاح". الكتكوت بقرش. وإذا اشتريت عشرة، يعطيك واحد أو اثنين فوق البيعة.

ثم نجد "ذكي بتاع الجاز". برميل كيروسين مركب على عجلتين من عجلات العربات الكارو، يجره حمار غاية في البؤس. ذكي بتاع الجاز، مدمن سبرتو. ليس أكثر حظا من حماره. يبيع الكيروسين للفلاحات، لزوم لمبات الجاز والإنارة، وبوابير البريموس والطبخ.

بعد ذلك، نعطف يسارا مع الطريق الترابي الضيق. نمر على دكان ترزي بلدي على الشمال. صاحبه اسمه محمود، أخرس. في وسط الدكان منضدة مربعة تملأ المساحة وترتفع عن الأرض مسافة قدم واحد. يفرد عليها الترزي القماش، ويقوم بتفصيله وهو جالس على وسادة قطنية.

بعد ذلك نمر بمحلات معظمها مغلق. هذا محل بقالة، وهذا لبيع القصب. لا أحد يسير في الشارع. الكل في الغيط يفلح. النساء يظهرن بين الفينة والأخرى لسكب ماء الغسيل أمام البيوت. لذلك نشم رائحة الصابون الممزوج بالأتربة طول الوقت.

ثم نمر على الكنيسة الوحيدة بالقرية. أصوات أجراسها هي أول الأصوات التي سمعتها وأنا طفل، ممزوجة بأذان الفجر، قبل أن أجيد المشي.

في نهاية الرحلة، نصل إلى بيت جدتي، التي سرت كثيرا لرؤيتنا. قابلتني بالأحضان والقبلات. حمد الله على سلامتكم، فرد والدي: الله يسلمك.

الفصل السابع عشر

والده، عبد المنعم، كان ضابطا بالجيش. كمندان بحيرة قارون. متزوج من ابنة تاجر قطن ميسور الحال من مدينة الجيزة. الأب له أربعة أبناء صغار، ولدان وابنتان. منهم عادل، بطل حكايتنا هذه.

عندما قامت الثورة المصرية عام 1952م، ووجد الثوار أن الكمندان عبد المنعم، كان يستقبل جلالة الملك فاروق، عندما كان يذهب للصيد في بحيرة قارون، قاموا بفصله بدم بارد من الخدمة، بدون مكافأة أو معاش.

لم يسمح له بالعمل في الحكومة، لأنه من ضباط العهد البائد، الذين خرجوا في التطهير. حفي الرجل بحثا عن عمل شريف يناسب قدراته، يمكنه من إعالة أسرته الصغيرة، لكن دون جدوى. الدنيا عصلجت معاه.

باع عفش بيته، وترك سكنه، وأقام هو وأسرته في غرفة واحدة، بسرير واحد وحمام مشترك فوق السطوح. يشربون من صنبور مشترك، ويطبخون طعامهم في أحد أركان الغرفة.

لم تتحمل زوجته، هذه الحياة البائسة، فتركته مع أولاده وذهبت هي لكي تعيش في بيت والدها التاجر. ظل هو يبحث عن عمل بدون فائدة. أنفق كل ما معه من نقود، وبدأ يعيش على ما يجود به أقارب زوجته، وكان حماه متوفيا.

ظل على هذا الحال مدة عامين. بعد وساطة أهل الخير، وجد وظيفة بائع في أحد فروع شركة بنزايون لبيع الأزياء والمنسوجات، قطاع خاص، بمدينة فاقوس، التي تقع شرق الدلتا.

فاقوس، مدينة كبيرة في شرق الدلتا، تقع على أطراف الصحراء. معظم سكانها تجار من أهل البلد، أو موظفون غرباء. يمتاز أهلها بدماثة الخلق والكرم الزائد. بها بعض العائلات الكبيرة واسعة الثراء.

تبعد عن مدينة الزقازيق، عاصمة محافظة الشرقية، مسافة 30 كيلومتر تقريبا. بها مدرسة إبتدائية-ثانوية، تستوعب أعدادا كبيرة من الأولاد. بجوارها مدرسة أخرى للبنات.

شوارع المدينة والطرق المؤدية إليها، كلها ترابية غير مرصوفة. تقوم البلدية بكنسها ورشها بعربات الرش مرتين في اليوم، في الصباح ووقت العصر. الكناسون يلبسون الجلاليب ويحملون المقاطف والمقشات. كل منها عبارة عن يد خشبية طويلة تنتهي بقنو نخلة.

القنو هو مجموعة الأفرع الكثيرة التي تحمل البلح في النخلة. جاء في شعر إمرؤ القيس وهو يصف شعر حبيبته الأسود الفاحم الغزير: "وفرع يغشى المتن أسود فاحم أثيث كقنو النخلة المتعثكل".

رش الشوارع والطرقات، يمنع الأتربة من التطاير في الهواء والدخول إلى المنازل والمحلات. عربية الرش، عبارة عن خزان كبير محمول على عجلتين مثل عجلات العربات الكارو، يجره بغل. به فتحة علوية لملئه بالماء، وأنبوبتين خلفيتين في وضع أفقي، مثقوبتين للرش.

يجلس السائق أعلى الخزان ويتحكم في تدفق مياة الرش. في فصل الصيف، تجد الأطفال تجري خلف عربات الرش لترطب جسمها بالماء البارد. توجد في أماكن متفرقة من المدينة، حنفيات مياة ضخمة بخراطيم طويلة لتزويد عربات الرش بالمياة اللازمة.

على شاطئي الترع ترتص أشجار البونسيانا بزهورها الحمراء، التي تتوقد وتلتهب تحت أشعة الشمس طوال فصل الصيف. السماء زرقاء

صافية يشوبها قليل من الغمام الأبيض الناصع. مناظر خلابة تأخذ الألباب. لا تجدها في سويسرا ولا في أجمل بلاد أوروبا أو أمريكا.

ركب الأستاذ عبد المنعم القطار ، ومعه زوجته وأولاده، متوجها لمكان عمله الجديد في مدينة فاقوس، بعد أن شحن سريره وخلقاته ووابور بريموس وبعض أواني الطبخ، في عربة البضائع.

استلم الأستاذ عبدالمنعم وظيفته الجديدة، وسكن هو وعائلته في بيت أرضي مكون من غرفتين. بابه يفتح على حارة سد صغيرة، ويقع أمام السكن الذي أقيم فيه مع أسرتي بالدور الثاني.

تتعامد الحارة مع شارع ضيق صغير. أحد جانبيه، سور مطحن بطول الشارع ينتهي ببيت الحاج عيد البقال. الجانب الآخر، يبدأ بمنزلنا، حيث نسكن في الدور الثاني، فوق فرن أفرنجي لخبز العيش. يمتلكه الحاج حلمي صاحب البيت.

ثم ترتص مجموعة منازل من طابق واحد أو طابقين على الأكثر. يسكن بها أناس بسطاء، عسكري شرطة وعائلته، أم حامد، وهي إمرأة عجوز، تسكن بمفردها وتعيش على الإحسان والخدمة في البيوت.

يسكن كذلك، أبو حميدة الحلاق، وزوجته وابنته الصغيرة. وسائق سيارة أجرة متزوج من سيدة فلسطينية جميلة. حبشي أفندي، الموظف ببنك التسليف، يسكن هو وعائلته في أحد المنازل بالدور الثاني.

أثناء رجوعي من المدرسة في أحد الأيام، وجدت في وسط الشارع، مدفأة مكسورة من الفخار، ملقاة من بيت حبشي أفندي. بجوارها قطع متناثرة من الفحم وأرجيلة مكسورة، و"ماشة" تستخدم في تسوية قطع الفحم المتوهجة.

نحن لا نقابل مثل هذا المشهد كثيرا في حياتنا العادية. لذلك اعترانا الفضول وشئ من العجب. فبدأنا نسأل عن السبب. تبين أن الأخ حبشي، وهو فعلا من أصل حبشي، بسمرته وقصره ونحافة جسده، قد أغراه بعض الأصدقاء بشرب الحشيش في بيته.

الأخ حبشي، آخر ما يمكن أن يفعله، هو تدخين سيجارة شحاته. حكاية عمل برتيتة تدخين حشيش في بيته، لم تراوده أو تخطر على باله في يوم من الأيام. لكنه وافق تحت ضغط الإحراج والكسوف، والأمل في قضاء ليلة ممتعه على السرير.

لكن الأمور لم تسر على ما يرام، وكما يجب. يبدو أن حبشي أفندي، قد فوجئ في تلك الليلة بنكسة غير سارة، وخيبة أمل كبيرة، لم تكن في الحسبان. لقد حدث له أمرا، لم يصادف مثله منذ زواجه.

غضب حبشي أفندي من فشله وضعف قدراته، غضبة مضرية، وأخذ يصب الشتائم واللعنات على الشيطان الرجيم وأصدقاء السوء، الذين كانوا السبب. ثم ذهب عاريا، وهو في كامل ثورته، إلى المدفأة والأرجيلة ولوازمها، وألقى بكل ذلك من شرفته إلى قارعة الطريق.

في نهاية الشارع، قهوة بلدي، يمتلكها صالح، شاب في الثلاثينات، يسكن فوقها هو وزوجته وأطفاله. القهوة تواجه بيت الحاج عيد البقال، يمر أمامهما شارع بمحازات النهر. ويقتطع كل من صاحب القهوة والبقال، حديقة صغيرة من حرم النهر. أخذاهما بوضع اليد.

الأول يستخدم حديقته كإمتداد لقهوته، وشرب الحشيش بعيدا عن أعين الشرطة. الثاني يزرعها بأشجار فاكهة وزهور. قام في أحد الأيام بربط ابن أخيه الحرامي الشاب بأحد أشجارها، عقابا له على سرقته نقود عمه من الدكان.

في منتصف أحد ليالي الشتاء قارسة البرد، استيقظت أسرتي بأكملها، وربما الشارع كله، على صوت أم حامد الحاد، يشق سواد الليل، ويفلق زخات المطر المنهمر. صوت لا ينسى يقول: "قتلوا صالح يا ناس يا هوه"، "قتلوا صالح ياناس يا هوه".

كان صالح يركب سيارة أجرة، محملة بترب الحشيش، يقودها سائق. في هذا الوقت المتأخر من الليل، وأثناء المطر، مرا على نقطة مرور.

عندما طلب عسكري المرور منهما التوقف وتفتيش السيارة، إنطلق السائق بالسيار بأقصى سرعتها. فقام العسكري بإطلاق رصاصة واحدة من بندقيته الأنفيلد القديمة، لتردي صالح قتيلا. لقد كان يجلس في المقد الخلفي.

في نهاية الشارع الضيق، من الناحية الأخرى، وعلى الناصية يوجد محل بقالة أحمد هندام. بجواره محل حلاقة يستأجره أبو حميدة. وهو رجل في الخمسينات من العمر.

زائد الوزن ويمتد كرشه أمامه. يلبس بالطو أصفر ضيق بتاع العساكر فوق جلباب أفرنجي، وطاقية صوف لها قرنان، يكبسها حتى تغطي أذنيه. ضعيف النظر، يلبس نظارة كعب كوباية. ويقوم بتحسس وجه الزبون للتأكد من طول شعر ذقنه.

يبدو أن عملية الحلاقة موش جايبة همها. فقام أبو حميدة بوضع قدرة فول مدمس على الرصيف أمام الدكان. عندما تقف أمامه، يرمقك بنظرة، ثم يسألك: "حلاقة والّا فول".

مرة أو مرتين في الشهر، نسمع الصوات والصريخ آتيان من بيت أبو حميدة. ثم نسمع صوت عربة الإسعاف، التي تقوم بحمله إلى المستشفى. ماذا جرى؟

يتضح في كل مرة، أن أبو حميدة زود العيار حبتين، وأكل ما تبقى من قدرة الفول. مما أصابه بعسر الهضم والانتفاخ.

في واجهة الحارة السد، بيت أرضي بحوش. يسكنه الحاج عامر وزوجته الحاجة أم العزم. الحاج عامر وزوجته، كانا يعملان، كطباخ وخادمة، في قصر أحد البشاوات بتوع زمان بالقاهرة.

الحاج عامر كان طويل القامة، قارب التسعين من العمر. وزوجته، كانت تمشي منحية مثل الرقم ستة، ربما كانت في الثمانينات. كل عام، في موسم عاشوراء، كنت أجد الحاج عامر يدور على كل بيوت الحي، ليعطي كل بيت طبق عاشوراء، المطبوخ بالقمح واللبن والزبيب والمكسرات.

في الجهة المقابلة من دكان أحمد هندام، يوجد جامع المأمور. هذا هو الاسم القديم للجامع، الذي لا يعرفه سكان الحي الآن. ربما سمي كذلك، لأن مأمور المركز قام بجمع التبرعات والإشراف على بنائه، أو ربما يكون قد تكلف هو ببنائه.

كانت تتزين مئذنته بالمصابيح الكهربائية طوال شهر رمضان. منظر خلاب أثناء الليل. وكان الأذان من مئذنته بالصوت العادي دون ميكروفونات أو إزعاج. شيخ الجامع، كان الشيخ علي من خريجي الأزهر، أعمى البصر وعاجز النظر، لكنه كان ضليعا بأمور الدين.

بجوار قهوة صالح، توجد معصرة سمسم. يُربط فيها رجل مكان البغل، لإدارة حجر المعصرة. أمام بابها منطقة غامقة اللون بسبب اختلاط الزيت بتراب الشارع. ابن صاحب المعصرة كان معنا في المدرسة.

قام صاحب المعصرة بشراء المطحن الموجود في الجانب الآخر من الشارع الضيق. المطحن بني على مساحة لا تقل عن الفدان، وكان ثمن الشراء ألفين جنيه في ذلك الوقت.

كان هناك شاب أبيض أحمر الوجنتين زائد الوزن في العشرينات، يلبس الجلباب الأبيض المكوي. يضع في أصابعه الخواتم الذهب ويقوم بتصفيف شعره ودهنه بالفازلين. لا أعلم علاقة هذا الشاب بالمطحن، ربما يمت بصلة القرابة لصاحبه.

في يوم من الأيام، ذهب هذا الشاب إلى الغرفة التي بها ماكينة المطحن. ماكينة المطحن تعمل بالسولار، وتنقل الحركة عبر سيور طويلة إلى أماكن الطحن.

لسوء حظ هذا الشاب، شبك طرف جلبابه بأحد السيور. فجذبته الماكينة إليها وعصرته عصرا، وهو يصرخ بأعلى صوته. لكن صوت الماكينة كان عاليا ولم يسمعه أحد، سوى صبي صغير لم يستطع مساعدته. مشاهد الرعب ليست مقصورة على أفلام هتشكوك و"بوريس كارلوف".

عادل، الابن الأكبر للكمندان عبد المنعم، كان يقربني في السن. كان لا يزال في المرحلة الإعدادية، وكنت أنا في المرحلة الثانوية. تعرفت عليه بحكم الجوار. وبدأت صداقتنا عام 1955م.

كان شابا وسيما خجولا دمث الخلق، نحيفا طويل القامة. كنا نلعب رياضة النط بالزانة، أنا وأخي الأصغر وأخوه الأصغر. وكان يأتـي كل صباح، لكي يرافقني في رحلة الذهاب للمدرسة، وينتظرني للعودة سويا إلى المنزل.

كان يأتي إلى سكني، فيجدني لازلت نائما في السرير. فيضحك من كل قلبه ويقول: "هو أنا كل مرة أجدك في السرير؟ ما في مرة، ولو بالغلط، أجدك مستعدا للذهاب للمدرسة؟" فتجيب والدتي، رحمها الله، "قل له يابني، مغلبني في صحيانه كل يوم".

نتبادل الحديث ونحن في طريقنا إلى المدرسة. يحدثني عن القاهرة وجمالها، وعن عائلة جده التاجر بالجيزة. وعن الأفلام الأجنبية، التي كان يعشقها ويعرف أسماء أبطالها وبطلاتها.

نصل إلى المدرسة، فنجد البوابة قد أغلقت. فيضحك ويقهقه، ويقول: "والله ما حد حيبوظ تعليمي ومستقبلي إلا أنت". ثم نظل نترجى عم رجب الفراش، الذي يلبس الجلباب البلدي والطربوش، لكي يفتح البوابة الحديد لكي ندخل. فيقول:

-أنتم الإثنين بالذات، لا.
-ليه يا عم رجب الله لا يسيئك.
-لأنكم كل يوم تأتيا متأخرين.
ثم يعطينا، عم رجب، درسا في فوائد الاستيقاظ المبكر وحفظ المواعيد.
-معلهش يا عم رجب أصلنا كنا سهرانين بنذاكر.
-أبدا، لن تدخلوا، إلا بعد أن يحضر أولياء أموركما.
-ياعم رجب الله يهديك.
-وأخيرا يرق قلب عم رجب، ويفتح الباب، بعد أن يتأكد من أن ناظر المدرسه غير موجود بالحوش.

في يوم عيد، قررنا، أنا وصديقي عادل، الذهاب إلى العاصمة لدخول السينما هناك. سينما فاقوس، كانت دار واحدة، تعرض أفلام عربي أبيض وأسود. أما في الزقازيق، فكانت توجد في ذلك الوقت أربع دور عرض، تعرض أفلام أجنبية بالألوان.

أخذنا الأوتوبيس ووصلنا إلى الزقازيق، في وقت بين العصر والمغرب تقريبا. وجدنا فيلم حصار طروادة معروضا في سينما أمير الصيفية. الفيلم أجنبي طويل جدا. انتهى العرض حوالي الساعة الواحدة صباحا.

لم نجد مواصلات للعودة في هذه الساعة المتأخرة من الليل. الجو كان باردا جدا، فقررنا الذهاب للجامع للنوم فيه حتى الصباح. وجدنا جامع أبو خليل مغلقا.

ذهبنا إلى محطة القطار، وجلسنا على كنبة خشبية على الرصيف. بعد نصف ساعة تقريبا، جاء موظف بالسكة الحديد لكي يسألنا عن سبب وجودنا على الرصيف بينما لا توجد قطارات في تلك الساعة. وطلب منا مغادرة المكان.

خرجنا من المحطة، وأخذنا ندور في الشوارع، ثم عدنا إلى نفس المكان. فوجدنا الموظف قد غادر الرصيف. أنتظرنا أول قطار ذاهب إلى المنصورة. أخذنا القطار ونزلنا في مدينة ههيا. ثم ذهبنا إلى بيت جدي لكي نكمل نومنا، ونتناول شيئا من الطعام.

والد عادل، كان يعمل في فرع بنزايون بمدينة فاقوس كبائع. الأم لم تكن تعمل، كما هو الحال بالنسبة لمعظم ستات البيوت في ذلك الوقت. الدخل لا يكاد يكفي شراء الخبز الحاف لأربعة أفراد.

لاحظت مرة، أنها طلبت من ابنها أن يقتصد في أكل الخبز حتى يكفي باقي الأسرة. مرة أخرى وجدتها تسند رأسها بكفها وذراعها في الشباك وهي تبكي. لاشك أنها الغربة، والحاجة، والخوف من المستقبل.

لقد كانت هذه السيدة، تحضر مع زوجها، عندما كان كمندانا بالجيش، مسرح يوسف وهبي. هاهي تعيش غريبة، لا تستطيع إطعام أولادها بدخل زوجها المتواضع. وبعد أن كانت تحضر حفلات أم كلثوم الحية، أصبحت تنتظر أغنية لها، تزاع من راديو صغير في دكان البقال المجاور لسكنها.

لكن القدر لا يرحم، ولا قلب له. عندما تمطر السماء، فهي تمطر بغزارة وبقسوة. بدون سابق إنذار، تم الاستغناء عن الزوج، الكمندان سابقا. حاول فاعلوا الخير التوسط لعوته لعمله، لكن دون فائدة.

ماذا يفعل الزوج بعد فصله من عمله؟ أخذ في بيع عفش بيته قطعة قطعة. ثم هداه تفكيره أن يخلي إحدى الغرفتين اللتين يسكن فيهما، ويستخدمها كدار حضانة للأطفال. حضانة بابا عبده.

استمر الحال كذلك مدة عدة شهور. خلالها، جاء أخو الزوجة لزيارة أخته وعائلتها في غربتها. لكنه لم يسعد بوضع الأسرة والحياة التي تعيشها أخته مع زوجها وأولادها. فنصحها بالعودة إلى القاهرة بأسرع ما يمكن.

عادت الأسرة إلى القاهرة. لم يكمل عادل صديقي تعليمه، واكتفى بشهادة الإعدادية. بعد حياة شاقة وكفاح مرير. تمكن الأب من إيجاد وظيفة في شركة لتجارة الورق ككاتب.

في نفس الوقت، وجد عادل وظيفة في شركة بنزايون بالقاهرة، وهي نفس الشركة، التي فصل منها والده من قبل.

مرت السنون، وتخرجت من الجامعة، ثم توظفت بمؤسسة حكومية بالقاهرة. وبينما أنا أسير في شارع الألفي بالقاهرة، إذا بي أجد عادل صديق الصبا يسير على الرصيف.

قوام ممشوق، يلبس البدلة الكاملة والشعر المدهون فازلين والحذاء اللامع، كعادته. وقد كان يشبه إلى حد كبير كمال الشناوي ولكن بدون شارب.

لم نفترق منذ ذلك التاريخ، واستمرت صداقتنا إلى أن تركت مصر وهاجرت إلى الولايات المتحدة. في أول شهر رمضان من كل عام، كان يأتي إلى

سكني بالقاهرة، ويدعوني على الإفطار، أنا وأخي، في بيت عائلته بالجيزة. لم يستثن عاما.

لا يمكن أن تشعر وأنت تحادثه، إلا أنك أمام إنسان متعلم واسع الثقافة والاطلاع، بالرغم أنه لم يحصل إلا على شهادة الإعدادية. لم أعهده يكذب أبدا، أو يتنصل من وعد، قد إلتزم به، أو مارس النميمة في حق أحد. أخلاق رفيعة بكل المستويات.

ذهب في مأمورية تبعا لعمله إلى مدينة السويس. قابل هناك فتاة عذراء بيضاء شقراء. في خلال أسبوعين، تم زواجه منها. وسكن معها في شقة صغيرة في عقار قديم خلف جامعة القاهرة. تفتح شبابيكها كلها على المناور.

لسوء حظه، كانت زوجته من النوع العصبي شديد الغيرة والأنانية. جعلت حياته جحيم في جحيم. جعلته يمشي يكلم نفسه في الشوارع. كان لا يجد من يشكي له همه سواي، صديق عمره.

كنت أواسيه، وأطلب منه الصبر والتحكم في انفعالاته. وخصوصا بعد أن أنجب طفلة صغيرة جميلة. وكانت زوجته تغضب وتترك له ابنته وتذهب إلى عمها في السويس، بعد أن تركت عملها.

ثم هاجرت إلى الولايات المتحدة في أواخر عام 1969م، وتركته على هذا الحال. في أول زيارة لي لأرض الكنانة، جاء لزيارتي في بيت أخي بأحد أحياء القاهرة.

جلسنا في الشرفة نتبادل أطراف الحديث حتى الصباح. لاحظت علامة في أسفل رقبته. عندما سألته عن سببها، قال أنه قام باستئصال جزءا من الغدة الدرقية.

في زيارتي لمصر التالية، بعد سنة أو سنتين، في أوائل السبعينات، أخذت أخي الأصغر وذهبنا للسؤال عنه في مكان عمله بشركة بنزايون. سألنا الموظفين، فلم نجد أحدا يعرف مكانه.

أثناء خروجنا، تبعنا ساعي يعمل بالشركة. سألنا، هل تبحثون عن عادل عبد المنعم. أجبت نعم، من فضلك. فأجاب، هل أنتم أقاربه؟ فقلت، لا. بل أصدقاؤه. فقال: حياتكم الباقية، لقد توفى منذ سنة تقريبا. إنا لله وإنا إليه راجعون".